كتابي ١٢

الخطيئة الأولى

البيرتو مورافيا

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

حلمي مراد

مع تحياتي : علي مولا

أتمنى لكم المتعة وحُسن الفائدة

علي مولا



الخطيئة الأولى

لأديب إيطاليا المعاصر

البرتو مورافيا

ألبرتو مورافيـا

● « إن رسالة الأديب هى أن يصور الحياة بمساوئها وخيراتها، وأن يحلل هذه الحياة من النواحى النفسية والفلسفية والاجتماعية ، دون أن يصدر فيها حكماً، أو يبحث عن حل لمشكلاتها، قانعا بأن يكون دوره دور المتفرج الذى يعرض ما شاهد بالدقة والأمانة ، مع رشى من مشاعره وتجاربه وخبرته .. » .

هذه هى القاعدة التى وضعها الأديب الإيطالى المعاصر « ألبرتو مورافيا » لإيضاح رسالة الأديب ، كما يراها .. وقد استطاع أن يلتزم هـذه القاعدة منـذ وضع أولى رواياته « المستهترون » ، وهى رواية تتناول فيها حياة الفريق المترف من الطبقة الوسطى من مجتمع روما، فكان نصيبها أن صادرتها الحكومة الفاشية فى ذلك الحين !

والواقع أن « مورافيا » لاقى من الفاشية عنتاً ما بعده عنت ، إذ اعتبرت رواياته نقداً للمجتمع الذى انتعشت فيه الفاشية فى إيطاليا ، ومن ثم لم تكن قط موضع رضى لدى « وزارة الثقافة الشعبية » ، وكانت قصته مع الطغيان الفاشى قصة الكاتب الحر أو الفنان الحر الذى أبى أن يبذل مواهبه لتسلط السلطة الحاكمة الفاسدة ، بل أصر على أن يضيف إلى الأدب الإيطالى — فى أعقاب الحرب العالمية الأولى — ثروة جديدة ، حرة ، تجعله يساير آداب الدول الأوربية الأخرى . وقد وفق « مورافيا » إلى ذلك ، رغم كل ما لاقى .. بل إن توفيقه يمكن أن يوصف بأنه جاوز كل ما كان

يرجو ؛ إذ استطاع أن يسير بالأدب الإيطالى جنباً إلى جنب مع الأديبين الفرنسى والإنجليزى ، اللذين كانت كل الظروف تساعدهما على الانطلاق الحر ..

شهر عسل .. عصيب

● وعندما قضى الحلفاء على الحكم الفاشى فى روما ، كان « مورافيا » يقيم فى بلدة (فوندى) . وقد كانت لإقامته هناك قصة طريفة ، يرويها الكاتب الأمريكى « بان جربليس » ، الذى كان أول من قابل « مورافيا » عقب تحرير روما .. وتتلخص هذه القصة فى أن الأديب الإيطالى أحس فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ أن الفاشيين — وقد اشتدت محنتهم — تحولوا يفتكون بالأحرار ، وأنهم يوشكون أن يعتقلوه !.. وكان يومئذ حديث عهد بالزواج، فبادر وعروسه بالفرار من روما ، قاصدين إلى (نابولى) : ولكن القطار الذى استقلاه لم يستطع أن يتجاوز (فوندى)، وهى بلدة صغيرة تهجع عند سفح الجبال . وهناك أمضى الزوجان شهر عسل لعله الأول من نوعه : إذ أقاما فى حظيرة لحيوان منخفضة السقف، قذرة الجدران، عششت العناكب فى أركانها .. وكانت الأمطار والغارات الجوية لا تنفك تقض راحتهما !

على أن هذه المحنة ، محنة العيش المحفوف بالأخطار ، المشوب بالشظف ، والعناء ، والجوع فى (فوندى) .. هذه المحنة لم تؤثر فى نشاط « مورافيا » ، فقد كتب فى أحضانها عدة قصص

قصيرة، كما أتم رواية «القناع»، والرواية التي تقدمها لك فيما يلي: «أجوستينو» – أو الخطيئة الأولى – التي تضمنت تحليلا من أروع ما كتب في وصف الأزمات العاطفية في حياة الفتى المراهق، الذي يقف متردداً، حائراً، جاهلا، على عتبات الرجولة!

نزعته الأدبية .. وقصصه الأولى

● ومع أن روايتين من روايات «مورافيا» ترجمتا إلى الإنجليزية ونشرتا في أمريكا قبل الحرب – وهما «المستهترون»، و«الخاطئ الطموح» أو «عجلة الحظ» – إلا أن اسم «مورافيا» وإنتاجه لم يذع صيتهما خارج إيطاليا إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

ويبدو تأثر «مورافيا» بمذاهب الروائيين الحديثين في فرنسا وإنجلترا واضحاً كل الوضوح في إنتاجه، حتى لقد دفعه هذا التأثر إلى التحرر من الأساليب التقليدية في الأدب الإيطالي. وكان إنتاجه في البداية قاصراً على الشعر والقصص القصيرة، ثم شرع يحاول كتابة الروايات، فألف روايتين كان فيهما مقلداً ومقتبساً أكثر منه مؤلفاً ومبتكراً.. بل إنه رأى من نواحي النقص فيهما ما جعله يخجل من نشرهما، فلم يقدر لهما أن تريا النور.. ومن ثم فإن أول رواية نشرت له، وهي «المستهترون»، تعتبر أول إنتاجه الروائي الصحيح، إذ شعر وهو يكتبها بأن قدميه قد ثبتتا في الميدان، وأنه وفق إلى الإفصاح عن بعض ما في نفسه، وعن ألوان مما شاهد وخبر في الحياة..

وقد شرع «مورافيا» في كتابة القصة المذكورة في سنة ١٩٢٥، فلم يفرغ منها إلا في سنة ١٩٢٨.. واستطاع أن يرسم فيها صورة دقيقة، مفصلة، للحياة اليومية التي كانت تعيشها أسرة من أسرات الطبقة الوسطى في روما في ذلك الحين.. وقد كتب في أواخر سنة ١٩٤٥ مقالا يدفع فيه عن نفسه ما اعتاد أن يتهمه به غرماؤه من تطرف في الاشتراكية، وعداء للبورجوازية، فاستشهد بروايته تلك – «المستهترون» – مدللا على أنه إنما استمد فكرتها ووقائعها من الحياة الاجتماعية التي نشأ في رحابها، والتي أثارت – حين اكتمل وعيه – اشمئزازه وتقززه!

يسخر من موسوليني، فيصادر كتبه!

● وأضفت الرواية على «مورافيا» شهرة، ازدادت ذيوعاً عندما صودرت النسخ التي كانت معروضة منها في مكتبات إيطاليا!..
وقد أصدر بعد ذلك مجموعة قصص قصيرة، أعقبها برواية «الخاطئ الطموح». وكان في الكتابين ماضياً في رسم صور حياة الطبقة الوسطى في إيطاليا، وما يشيع خلالها من بواعث وضيعة، خسيسة، تلهم أبناءها الأنانية البشعة..

على أن «مورافيا» اتخذ في روايته التالية – «القناع» – منحى جديداً، إذ رسم فيها بأسلوب لاذع ديكتاتوراً جعل مسرح حكمه في أمريكا الجنوبية، وحرص على أن يصور مطامعه الجشعة، ونواحي النقص والضعف في شخصيته، ببراعة يعز معها على القارئ

أن يتجاهل أنه إنما كان يصف بعض صور الحياة التى كان يحياها فى إيطاليا فى عهد الحكومة الفاشية ، مما حدا بهذه الحكومة إلى أن تبادر إلى مصادرتها وإعدام نسخها !

أحسن قصة إيطالية فى عام ١٩٤٥ !

● وتعتبر « أجوستينو » – الخطيئة الأولى – من أكمل روايات « مورافيا » ، وأعظم أعماله الأدبية نضوجاً . وقد صدرت لأول مرة فى طبعة محدودة النسخ ، ازدانت بصور من رسم الفنان الإيطالى « ريناتو جتسو » . على أنها لم تلبث – بعد سقوط موسولينى وحكومته – أن لقيت رواجاً شجع على إصدار طبعة شعبية منها . وكان من نتائج هذا التوفيق الرائع أن حظيت بجائزة أحسن رواية نشرت فى إيطاليا فى سنة ١٩٤٥ !

ويرى بعض النقاد أن «أجوستينو» أدق رواية فى الأدب الحديث تناولت بصراحة ظواهر التطور ويقظة الرجولة فى نفس الفتى المراهق .

ويخطئ الكثيرون الذين يعتقدون أن التعرض لموضوع المراهقة كفيل بأن يتزلق بالكاتب إلى حمأة الأدب المكشوف المبتذل . فالواقع أن « مورافيا » لم يكن فى أى من رواياته – وفى « أجوستينو » بوجه خاص – بالكاتب الذى يهبط إلى درجة التبذل لاسترضاء الكاتب ، وإنما هو محلل نفسى ثاقب الملاحظة ، يتعرض لعلاج موضوعات شائكة يتهرب منها كثير من الكتاب – خشية أن يتهموا بالتبذل – ونقصد بها موضوعات « الجنس » !

ومن الصحيح أنه يقف فى ذلك عند حد التصوير ، لأنه يرى أن رسالة الأديب – كما قدمت لك – هى تصوير الحياة وتحليل نواحيها النفسية والفلسفية والاجتماعية ، مع ترك مهمة علاجها لأرباب هذا العلاج ممن تخصصوا فى تلك النواحى .. هذا كله صحيح ؛ ولكنه لا يحرم « مورافيا » من أن يكون له حقه – بل نصيب كبير – من التقدير .. فهو كالعالم الذى يرتاد الميادين العلمية ، ليمهد السبل للمخترعين .. مثله فى ذلك مثل « أينشتين » إذ بحث موضوع تفتت الذرة وتحول المادة إلى طاقة ، ووضع المعادلات العلمية لذلك ، ثم ترك المسرح للمهندسين والكيميائيين وغيرهم كى يخترعوا القنبلة الذرية ، والأفران التى تولد الطاقة الذرية للأغراض السلمية .. الخ .

ليس هذا فحسب ، بل إن الدور الذى يقوم به « مورافيا » يتجاوز نطاق العلماء والأخصائيين ، إلى القراء العاديين أنفسهم : إنه يكشف للآباء أسرار مرحلة من أدق المراحل التى يمر بها أبناؤهم ، ويطلعهم على بواعث انحراف الأبناء فى مرحلة المراهقة ليتفادوها .. كما أنه يبين للمراهقين أنفسهم الأسباب التى تبعث فى نفوسهم الانفعالات التى تحيرهم ؛ وغنى عن البيان أن كشف « بواعث » الانفعالات من وسائل العلاج النفسى المعترف بها !

استغرقت منه كتابتها عاماً !

● ويقول « مورافيا » إنه بدأ فى كتابة « أجوستينو » فى سنة ١٩٤٢ ، وقد قضى أكثر من عام حتى أتمها .. ثم كتب بعدها الرواية التى

اشتهرت باسم « امرأة من روما » ، والتى صور فيها حياة غانية إيطالية فى السنوات السابقة للحرب مباشرة .

ومن حق « مورافيا » أن نختم هذه الكلمة بما يكاد يجمع عليه كثير من النقاد المحايدين المنصفين ، من أن مؤلفاته ستظل مورداً يمد الأدب الإيطالى المعاصر بما كان يفتقده كل الافتقاد : أعنى بالرواية التى تحلل الأخلاق ، والسلوك ، والطباع .. والنفس !

« فتاة من الأقاليم »

● أما القصة الثانية لمورافيا التى تطالعها فى هذا الكتاب ، فهى قصة « فتاة من الأقاليم » التى كتبها عام ١٩٣٧ .

والفرق بين فتاة القرية ، وفتاة المدينة من مدن الأقاليم ، أوضح من أن يحتاج إلى بيان .

وقصة « فتاة من الأقاليم » من نوع آخر مغاير لقصة « أجوستينو » من كل وجه : فبينما هذه تعتمد على التحليل النفسى أولا وأخيراً ، إذا بتلك تعتمد على الحركة والحوادث المتلاحقة .. فبطلتها فتاة ذات حيوية وطموح ، تضيق آمالها بالحياة الراكدة الرتيبة التى تفرضها عليها حياتها فى إحدى مدن الأقاليم .. وتتمرد أحلامها على قيود الفقر والبيئة المتواضعة التى نشأت وعاشت فيها ، فتحلم بالثراء ، والزواج من شاب مترف ، والانتقال إلى العاصمة ، و .. و .. إلى آخر قائمة أحلامها !

فإلى أين تقودها هذه الآمال والأحلام ؟

هل تطير بها إلى سماء الخيال ، فتنعم بما طالما تاقت إليه ؟ أم تهوى بها من حالق ، إلى قاع الحقيقة ، فتسقط مهشمة العظام ، محطمة النفس ؟

الفصل الأول

● اعتاد (أجوستينو) وأمه ، فى تلك الأيام المبكرة من الصيف ، أن يخرجا معاً كل صباح ، فى قارب صغير .. وكانت الأم قد استأجرت فى المرات القلائل الأولى نوتياً يجذف بهما ، ولكن المجذافين لم يلبثا أن عهد بهما إلى (أجوستينو) ، منذ أظهر بجلاء استياءه لوجود الرجل معهما . وكان التجذيف فى البحر الهادئ الشفاف ، فى البكور ، يبعث فى نفسه متعة ، بينما كانت أمه تجلس مواجهة له ، فى إشراق البحر والسماء وبهائهما ، وتأخذ فى الحديث إليه بصوت ناعم ، وكأنه رجل ، لا مجرد غلام فى الثالثة عشرة من عمره !

كانت أم (أجوستينو) امرأة طويلة ، جميلة ، ما تزال فى عنفوان شبابها ، فكان (أجوستينو) يحس بالزهو كلما انطلق معها فى إحدى النزهات الصباحية ، إذ يشعر بأن جميع المستحمين على الشاطىء يرقبونهما ، فيعجبون بأمه ، ويغبطونه ! .. وكان وقع صوته فى أذنيه يبدو — لفرط يقينه من أن جميع الأعين مركزة عليهما — أقوى مما هو عادة . وكان يخال لكل حركة من حركاته معنى رمزياً ، كأنها حركات مرسومة فى مسرحية ، وكأن أمه تقف على خشبة مسرح — لا على الشاطىء — وتتعرض للنظرات المتلهفة من مئات النظارة !

وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمه فى ثوب جديد ، فلا يملك أن يقاوم الرغبة فى أن يبدى رأيه فى الثوب بصوت مرتفع ، وفى نفسه أمل خفى فى أن يسمعه الآخرون ! .. كما كانت أمه تبعث به من آن إلى آخر إلى كوخ الشاطىء — (الكابين) — ليأتيها بشىء ما ، وتقف بجانب القارب فى انتظاره ، فكان يطيعها فى فرح خفى ، ويسعده لو استطاع أن يعوق انطلاقهما فى البحر ولو لبضع دقائق ! .. ثم لا يلبثان أن يستقلا القارب فى النهاية ، فيستولى (أجوستينو) على المجدافين ، ويجذف متجهاً إلى عرض البحر ، ولكنه يظل طويلا تحت تأثير الانفعال المنبعث من غروره البنوى .. غرور الابن المزهو بأمه !.. فإذا ما أصبحا على مبعـدة من الشاطىء ، سألته أن يكف عن التجذيف ، لترتدى قلنسوة من المطاط تأهباً للسباحة ، وتخلع نعليها الخفيفين ، وتنساب إلى الماء .. ويتبعها (أجوستينو) فيظلان يسبحان حول القارب الخالى ، ومجدافيه العائمين على سطح الماء ، وهما يتكلمان فى مرح ، فيرن صوتاهما صافيين فى فضاء البحر الصامت ، الهادئ ، المنبسط تحت أشعة الشمس . وقد تشير أمه أحياناً إلى قطعة من الفلين تتأرجح فوق الماء على مسافة منهما ، وتتحداه أن يسبقها إليها ، وتتركه يتقدمها ببضعة أمتار ، ثم يندفعان سابحين بأسرع مايستطيعان نحو الفلين .. أو قد يتباريان فى الغوص قافزين من فوق حافة القارب ، ناثرين الماء الساكن ، الشاحب اللون ، وهما يغوصان !..

ويتأمل (أجوستينو) جسد أمه وهو يندفع متعمقاً تحت الماء ، وسط فيض من الفقاقيع الخضراء ، ولا يلبث فجأة أن يغطس وراءها ، تواقاً إلى أن يتبعها أينما ذهبت .. ولو إلى قاع البحر !.. وكان يخيل إليه وهو يلقى بنفسه فى الدوامة التى أحدثتها أمه ، أن الماء البارد ، الغزير ، خليق بأن يظل محتفظاً بأثر مروق جسدها الحبيب خلاله !

وكانا إذا ما فرغا من الاستحمام ، يصعدان إلى القارب ثانية ، فتقول أمه وهى تحدق فى صفحة البحر الهادئ الوضـاء : « ما أجمله ! .. ألبس كذلك ؟ » .. ولم يكن (أجوستينو) يحير جواباً ، إذ كان يحس بأن استمتاعه بجمال البحر والسماء ، يرجع فى الواقع — وقبل كل شىء — إلى ذلك الإحساس العميق الذى يوحيه إليه الارتباط بأمه .. بل لقد كان يسائل نفسه أحياناً ، ما الذى كان يبقى من كل هذا البهاء لو لم توجد تلك الألفة بينه وبين أمه ؟ !

ويظلان فى القارب ، فى عرض البحر ، أمداً طويلا ، يجففان جسديهما تحت أشعة الشمس ، التى تأخذ فى الاشتداد عند الظهيرة .. وإذ ذاك لا تلبث أمه أن تروح فى إغفـاءة ، وهى مستلقية على الجزء المنبسط بين جانبى القارب ، وشعرها مسترسل فى الماء ، وعيناها مغمضتان ، بينما يظل (أجوستينو) قائماً على

حراستها من مجلسه فى القارب ، وقد ثبت بصره عليها ، وكاد يحبس أنفاسه إشفاقاً من أن يقض نعاسها ! .. ثم لا تلبث أن تفتح عينيها وتبدى إعجابها بالمتعة الطريفة التى يستشعرها المرء إذ يستلقى على ظهره ويغمض عينيه ، ويحس بالبحر ينساب متأرجحاً تحته .. أو تسأل (أجوستينو) أن يناولها علبة سجايرها .. أو تسأله ما هو أبدع من ذلك : تسأله أن يشعل سيجارة ويقدمها إليها !

.. وكان هو يؤدى كل تلك الأمور فى عناية ، وفى تحمس يثير ارتعاشاً فى جوارحه ! .. وبينما تنصرف أمه إلى التدخين ، كان (أجوستينو) ينحنى إلى الأمام مولياً ظهره إليها ، وقد أمال رأسه جانباً ليستطيع أن يتأمل سحب الدخان الأزرق التى تنم عن الوضع الذى أراحت أمه رأسها عليه ، تاركة شعرها ينتشر حولها على صفحة الماء .. ثم تطلب إلى (أجوستينو) — فى لهجة التى لم تقنع بما نالت من الشمس — أن يجذف ، على أن لا يلتفت نحوها ، بينما تخلع حمالة الصدر — (السوتيان) — وتنضو عنها (المايوه) لتعرض جسدها بأكمله لحرارة الشمس . ويمضى (أجوستينو) فى التجذيف ، مغتبطاً بما أوصته به من عدم الالتفات نحوها ، وكأن فى ذلك إشراكاً له فى بعض الفرائض أو الطقوس ! .. ولم يكن يقتصر فى تنفيذ رغبتها على كبح نفسه عن مجرد الحلم بأن يلتفت ، بل إنه كان يحس بأن جسدها العارى المستلقى خلفه

ـجد قريب منه — فى غمرة الشمس ، كان يلتف فى هالة من غموض يثير فى نفسه أعظم آيات التوقير والتقديس !

* * *

● وذات صباح ، كانت أمه تجلس تحت المظلة الكبيرة كعادتها ، وهو مستلق على الرمل بجوارها ، فى انتظار موعد نزهتهما اليومية فى القارب ، وإذا بشبح طويل يحجب عن (أجوستينو) الشمس فجأة ، فرفع بصره ليرى شاباً ، لوحته الشمس بسمرة قاتمة ، يصافح أمه . ولم يبد كثير اهتمام به ، ظناً منه أنه أحد معارف أمه العابرين . . بل إنه تراجع إلى الوراء قليلا ، ريثما يفرغان من الحديث . على أن الشاب لم يتقبل الدعوة إلى الجلوس ، وإنما أشار إلى القارب الأبيض الذى جاء فيه ، ودعا الأم إلى أن تصحبه فى نزهة فى البحر ؛ وكان (أجوستينو) واثقاً من أن أمه سترفض هذه الدعوة ، كما رفضت دعوات كثيرة مماثلة من قبل ، ولكن كم كانت دهشته بالغة حين رآها تقبلها للتو ، وتبادر فى الحال إلى جمع حاجياتها — نعليها الخفيفين ، وقلنسوة السباحة ، وكيس نقودها — ثم تنهض عن مقعدها !.. أجل ، تقبلت الأم دعوة الشاب بنفس الطواعية والود البرئ اللذين كانت تبديهما لابنها ! وبنفس البساطة التفتت إلى (أجوستينو) — الذى ظل جالساً فى الانتظار ، منكس الرأس ، يعبث بالرمل —

ونصحته بأن يحظى بحمام شمس ، لأنها منطلقة فى نزهة قصيرة فى القارب ، ولن تلبث أن تعود بعد قليل !

وكان الشاب فى تلك الأثناء قد انطلق نحو القارب ، وكأنه واثق من أمره ، فتبعته المرأة منقادة ، فى مشيتها العادية الهادئة ، التى تضفى عليها جلالا .. ولم يتمالك ابنها — وهو يراقبهما — أن يحدث نفسه بأن الشاب يحس ولابد بعين الزهو والانفعال اللذين يستشعرهما هو كلما خرج فى القارب مع أمه !.. فراح يتأملها وهى تخطو إلى القارب ، والشاب يميل فى جلسته به إلى الوراء ، ويستند بقدميه إلى قاعه المكسو بالرمال ، ثم يعمل بمجذافيه فيخرج بالقارب بعد بضع ضربات قوية ، من المياه الضحلة القريبة من الشاطىء ..

ومضى الشاب يجذف ، والأم جالسة فى مواجهته ، وقد تشبثت يداها بالمقعد ، ولاح أنها كانت مندمجة معه فى الحديث . وأخذ القارب يزداد ضآلة ، حتى أصبح فى نطاق الوهج المتألق الذى ينعكس عن مصافحة أشعة الشمس لسطح الماء .. ثم أوغل فيه .

واستلقى (أجوستينو) — وقد ترك وحيداً — على المقعد القماشى الذى كانت تشغله أمه ، وثنى إحدى ذراعيه خلف رأسه ، وراح يحملق فى السماء ، كما لو كان مستغرقاً فى التفكير ،

غير مكترث لشىء مما كان يحيط به .. فلقد شعر أن كل رواد الشاطىء لابد قد رأوه وهو يخرج مع أمه إلى عرض البحر كل يوم ، ومن ثم فلن يفوتهم اليوم أن يلاحظوا أن أمه قد تركته اليوم ورافقت الشاب صاحب القارب ! وحمله هذا على أن يعقد العزم على أن لا يبدى أية بادرة تنم عن الاستياء والخيبة اللذين أفعما نفسه مرارة .. غير أنه أحس — رغم ما بذله من جهد ليصطنع الطمأنينة — أن كل امرىء كان يلمس ما فى مظهره من اصطناع وزيف ! .. ولم يكن يؤلمه أن أمه آثرت صحبة ذلك الشاب ، بقدر ما آلمه ذلك السرور وتلك المبادرة اللذين تقبلت بهما أمه الدعوة ، كما لو كانت ترجوها وترتقبها ! .. لكأنها كانت قد قررت من قبل أن لا تفلت أية فرصة ، فما أن عرضت لها واحدة ، حتى تقبلتها دون ما تردد ! .. أو لعلها كانت تشعر فى الواقع بالسأم فى كل تلك المرات التى كانت تخرج فيها وحيدة معه فى القارب ، فلم ترافقه فيها إلا لأنها لم تكن تجد خيراً منه !

وانبعث فى ذهنه خاطر ضاعف من شعوره بالذلة .. تذكر أمراً حدث فى حفلة راقصة صحبته أمه إليها : فقد كانت معهما قريبة وافقت على أن تراقصه مرة أو اثنتين — رغم أنه لم يكن إذ ذاك سوى صبى يرتدى (بنطلوناً) قصيراً — إذ يئست من أن يسألها أحد غيره أن تراقصه .. على أنها كانت ترقص فى تخاذل ، وقد بدا عليها الاكتئاب والضيق .. ومع أن (أجوستينو) كان



ورآها من مجلسه تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو إلى الشاطئ ، فتصافح الشاب مودعة ..

منصرفاً إلى ملاحظة خطواته ، إلا انه كان يشعر طيلة الوقت بما كان يداخلها من استصغار لشأنه ، وعدم احتفال به !.. ومع ذلك ، فقد سألها أن تراقصه مرة ثالثة ، وشد ما أدهشه أن رآها تبتسم فجأة وتقفز عن مقعدها ، ثم تسوى أطراف ثوبها بيديها .. ولكنها بدلا من أن تندفع إلى ذراعيه ، أولته ظهرها وابتعدت عنه ساعية إلى شاب كان قد أشار إليها من وراء (أجوستينو) !.. ولم يستغرق الحادث سوى خمس ثوان ، ولم ينتبه إليه أحد سوى (أجوستينو) نفسه ، ومع ذلك فقد أحس منه بمذلة طاغية .. وقد وقر فى نفسه أن الجميع شهدوا كيف عومل فى ازدراء !

... ووجد نفسه الآن — بعد أن انطلقت أمه مع الشاب — يقارن بين الحادثين ، فيراهما متشابهين .. لقد كانت أمه — كتلك القريبة — تنتظر فرصة تنبذه بعدها ، فقبلت — كما فعلت قريبته ، وفى مثل المبادرة المتلهفة — أول دعوة سنحت لها !.. وكان حظه فى المرتين أن يهوى من حالق المكانة التى رفع نفسه إليها فى خياله ، ليتردى فى الحضيض مهشماً ، مثخناً بالجراح !

* * *

● ومكثت أمه فى نزهتها فى ذلك اليوم زهاء ساعتين : ورآها من مجلسه تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو إلى الشاطئ ، فتصافح الشاب مودعة ، ثم تسير فى تؤدة نحو (الكابين) ، وقد أحنت

رأسها قليلا لتحمى عينيها من حرارة شمس الظهيرة . وكان الشاطئ إذ ذاك قد أقفر من رواده ، الأمر الذى صادف ارتياحاً من نفس (أجوستينو) ، وهو الذى كان يوقن دائمــاً أن كل الأعــين ترمقه وأمه !

وسألته أمه عرضاً : « ماذا تراك فعلت ؟ » .

فشرع يقول : « نعمت بتسلية جد ممتعة » .. وأخذ ينسج لها قصة مصطنعة ، وصف فيها كيف انصرف هو الآخر إلى السباحة مع أولاد من (الكابين) المجــاور . غــير أن أمه لم تصغ ، بل انصرفت إلى ارتداء ثيابها فى عجلة !

واعتزم (أجوستينو) أن يبادر ، إذا ما رأى القارب الأبيض يظهر فى اليوم التالى ، إلى ابتداع حجة للانصراف ، حتى لايعانى هوان البقاء منبوذاً مرة أخرى !.. على أنه لم يكد يتأهب للرحيل بعيداً عن أمه فى اليوم التالى ، حتى سمع صوتها يدعوه .. وقالت وهى تنهمك فى جمع متاعها : « تعال معى .. سنذهب لنستحم فى البحر » . فتبعها (أجوستينو) وقد ظن أنها ستصرف الشــاب لتذهب معه وحده .. وكان الشاب ينتظرهما فى القارب ، فحيته أمه ثم قالت فى بساطة : « لقد أحضرت ابنى أيضاً » .. وهكذا رأى (أجوستينو) نفسه — وهو كاره — يجلس إلى جوار أمه فى مواجهة الشاب .. الذى راح يجذف !

وكان (أجوستينو) قد اعتاد أن يرى أمه دائماً فى ضوء معين :

هادئة ، محتشمة ، فى وقار : لذلك بهت فى هــذه المرة إذ رأى التغــير الذى اعتراها ، والذى لم يقتصر على طريقتهــا فى الكلام فحسب ، بل بدا إنه شمل نفسها ، حتى صار يتعذر عليه أن يرى فيها المرأة التى ألفها من قبل ! .. ولم يكونوا قد أوغلوا إلى عرض البحر ، حين أبدت بعض ملاحظــات شخصية لاذعة ، لم يفقــه (أجوستينو) معناها ، ولكنها كانت بداية لحــديث خاص ، غريب ، أقصى ما أدركه الفتى منه أنه كان يدور حــول صديقة للشاب أعرضت عن كل محاولاته ، وآثرت عليه غريماً له ! .. غير أن هــذه القصــة لم تلبث أن أفضت إلى الموضــوع الحقيقى للحديث الذى راح يجرى فى تلميح ومراوغة حيناً ، وفى تحديد ودقة حيناً آخر ، مشيراً للغبط آناً ، ومنطوياً على تلطف وتدليل آناً آخر ! .. وبدت أمه أكثر الاثنين تحرشاً وتحاملا ، بينما التزم الشاب الهدوء فى الرد ، واللهجة الساخرة ، كما لو كان واثقاً من نفســه ! .. وكانت الأم تلوح فى بعض الأحيــان مستاءة ، بل غاضبة محنقة ، فكان (أجوستينو) يطرب لذلك .. ولكنها كانت لا تلبث بعد ذلك أن تغيظه ، إذ تبدر منها عبارة مجاملة للشاب ، تبدد نشــوته ! .. وفى أحيان أخرى كانت تمضى تصب على الشاب سيلا من تأنيب غامض ، فى صوت شاك متألم ، ولكن (أجوستينو) كان يرى وجه الشاب يشرق بوميض من غرور أخرق ، بدلا من أن يبــدو عليه الألم ! .. فكان يستنتج من ذلك أن التأنيب

لم يكن سوى ستار يخفى مرامى عاطفية عجز عن سبر غورها !

أما فيما يتعلق به ، فقد بدا أن أمه والشاب معاً لم يكونا يشعران بوجوده ، وكأنه لم يكن فى رفقتهما ! .. بل إن أمه تمادت فى تجاهل وجوده فراحت تذكر الشاب بأن خروجها وحيدة معه فى اليوم السابق كان خطأ منها لا تنوى أن ترتكبه مرة أخرى ، وإنما سوف تحضر ابنها معها دائماً فى المستقبل ! .. وأحس (أجوستينو) من قولها بإهانة واضحة ، كأنه كان جسما بلا إرادة .. مجرد شىء تتخلص منه ، كلما رأت ذلك ، بوحى من نزواتها !

... مرة واحدة فطنت أمه إلى وجوده ، حين أفلت الشاب المجذافين من يده لحظة ، ومال إلى الأمام وعلى سيماه إمارات خبث عارم ، وتمتم بصوت خفيض قولا لم يتبينه (أجوستينو) .. فأجفلت أمه ، وصاحت مشيرة نحو (أجوستينو) — الذى كان يجلس إلى جوارها — متظاهرة بأنها جد مأخوذة : « فلنشفق على هذا الساذج .. على الأقل » ! .. واهتز (أجوستينو) حنقاً إذ سمع وصفه بـ (الساذج) ، كما لو كان قد قذف بقطعة مهلهلة قذرة من قماش لم يستطع أن يتفاداها !

وإذ ابتعدوا بالقارب مسافة عن الشاطىء ، اقترح الشاب على المرأة أن يهبطا إلى الماء . وبهت (أجوستينو) للحركات غير المألوفة التى أخذت أمه تضفيها على تصرفاتها .. فقد طالما أعجب بالبساطة والسهولة اللتين كانت تنزلق بهما إلى الماء .. أما فى هذه

المرة ، فإن الشاب غطس تحت الماء ، ثم برز ثانية على السطح ، وهى ما تزال تقف على حافة القارب مترددة ، تغمس من قدمها إصبعاً بعد آخر فى الماء ، وقد وضح أنها كانت تصطنع الخجل أو الاستحياء ! .. بل إنها لم تلبث أن أثارت مزيداً من الضجة والجلبة بصدد النزول إلى الماء ، إذ أخذت تضحك ، وتحتج ، وتتشبث بمقعد القارب بيديها معاً ، حتى تدلت فى النهاية من جانب القارب بطريقة كادت تخلو من الاحتشام ، ثم تركت نفسها تهوى إلى ذراعى صاحبها فى حيلة غير متقنة !

وغاصا معاً ، ثم عادا إلى السطح سوياً .. ورأى (أجوستينو) — وهو منكمش على مقعده فى القارب — وجه أمه مشرقاً بالابتسام ، على مقربة من وجه الشاب الأسمر الجامد ، وخيل إليه أن خديهما تماسا . وكان يرى جسديهما فى الماء الرقراق الشفاف ، وأردافهما وسيقانهما تتلامس ، وقد بدا عليهما أنهما يتوقان إلى أن يتعانقا ! .. وأخذ (أجوستينو) يتأملهما فى البداية ، ثم أشاح عنهما وتطلع إلى الشاطىء البعيد وقد أحس باستحياء ، لكونه عقبة فى طريقهما ! .. وإذ لمحت أمه وجهه العابس ، وهى تتأهب للغوص مرة ثانية ، نادته صائحة : « لم تبدو فى هذا العبوس ؟.. ألا ترى جمال الطبيعة هنا ؟.. يا لله !.. ما أكثر تعقل هذا الابن الذى أنجبته ! » .. فملأت هذه الملاحظة نفس (أجوستينو) بالخجل والصغار ، ولم يحر جواباً ، بل ولى وجهه صوب ناحية أخرى ..

● وطال بالسابحين البقاء في الماء ، فقد راحت أمه ورفيقها يلهوان كحيوانين مائيين ، وكأنهما نسيا (أجوستينو) تماماً ! .. وأخيراً ، عادا إلى القارب ، فصعد إليه الشاب في قفزة واحدة ، ثم مال على حافته ليساعد زميلته التي كانت تناديه كي يعاونها على مغادرة الماء .. ورأى (أجوستينو) – وهو يرقب المنظر – كيف أن الشاب أمسك جسدها الأسمر بأصابعه ، وهو يرفعها ، في الموضع الذي تنفرج عنده الذراع عن الإبط . ثم جلست بجانب (أجوستينو) لاهثة ، ضاحكة ، وأبعدت بأظافرها المدببة ثوب الاستحمام عن جلدها ، حتى لا يضغط على ثدييها . وتذكر (أجوستينو) أن أمه كانت في العادة تجد من القوة ما يمكنها من أن تصعد إلى القارب بدون مساعدة أحد ، عندما كانا يخرجان وحدهما .. فعزا طلبها العون ، وحركات جسدها الطارئة التي خالها تجتذب الانتباه إلى رقة الأنوثة وضعفها ، إلى الروح الجديدة التي بعثت كل هذا التغير الممجوج فيها ! .. ولم يتمالك الغلام أن تذكر أن أمه – التي كانت بطبيعتها طويلة القامة ، مهيبة الشكل – كانت في الواقع تكره حجم جسمها ، إذ تراه عيباً تود لو تتخلص منه .. كما كانت تعتبر وقار مسلكها عادة متعبة ، حاولت أن تستبدل بها شيئاً من نزق الفتيات الطائشات !

وما أن استقر السابحان في القارب ، حتى بدأت رحلة العودة ، وأسلم المجذافان في هذه المرة إلى (أجوستينو) ، بينما جلس

الآخران على المعارضة التي تصل بين جانبي الزورق .. فأخذ الغلام يجذف منتشياً تحت الشمس الحامية ، وهو يعجب طيلة الوقت من الضحكات والحركات التي كان يشعر بها خلف ظهره ، ويتساءل عن معناها ؟ ! .. وكانت أمه تمد إحدى ذراعيها بين آن وآخر – وكأنها كانت تفطن بغتة إلى وجوده – فتربت على مؤخر عنقه ، أو تدغدغ إبطه ، وتسأله عما إذا كان قد شعر بالتعب ، فكان يجيبها بالنفي .. وفي إحدى المرات سمع الشاب يقول ضاحكاً : « إن التجذيف مفيد له » ، فدفع مجذافه في الماء بغيظ !

وكانت أمه وقتئذ تجلس مسندة رأسها إلى مقعده ، باسطة ساقيها الطويلتين أمامها – أو هكذا كان يحسبها – لكنه ما لبث أن أحس أنها لم تعد باقية على هذا الوضع . وفي إحدى المرات التي شعر فيها أنها غيرت وضعها ، خيل إليه أن ثمة حركة شديدة خلفه ، وندت من أمه صرخة مكتومة – كما لو كانت تختنق ! – ومال القارب على أحد جانبيه .. واحتك خد (أجوستينو) لحظة بجسم أمه ، فبدا له كأن هذا الجسد ينبض بحياة لا قبل لها بالسيطرة عليها .. فإنها كانت قد نهضت واقفة ، مباعدة ما بين ساقيها ، متشبثة بكتفي ابنها ، وهي تقول للشاب : « لن أجلس حتى تعد بأن تحسن سلوكك ! » .. فأجابها هذا في جد شابته سخرية : « أعدك » .. وإذ ذاك هبطت جالسة في تردد ، فاحتك جسدها بخد ابنها ، فعلقت ببشرته رطوبة جسمها خلال ثوب السباحة

المبتل .. غير أن حرارة ذلك الجسد بدت أعظم من رطوبته ! . .
ومع أن (أجوستينو) أحس بشعور مؤلم من عدم الارتياح ، بل من الاشمئزاز ، إلا أنه أصر على أن لا يجفف خده من آثار تلك الرطوبة !

وإذ اقتربوا من الشاطىء ، قفز الشاب بخفة إلى مقعد التجذيف ، وأمسك بالمجذافين ، دافعاً (أجوستينو) عن مجلسه إلى المكان الذى تركه هو بجوار أمه .. فبادرت هذه تطوق الغلام بذراعها ، وسألته عن شعوره ، وعما إذا كان سعيداً ؟ ! .. وكانت من ناحيتها تبدو فى غاية الغبطة ، حتى أنها ما لبثت أن شرعت تغنى . . وكان هذا تصرفاً آخر غير مألوف منها ! . . وكان لها صوت عذب ، بث فيه الآن بعض نبرات حزينة أثارت رعدة فى كيان (أجوستينو) ! .. وظلت وهى تغنى تضمه إليها ، وتبلله بالماء الذى كان ثوب السباحة ينضح به ، والذى بدا – رغم ذلك – وكأنه يعكس دفئاً ينبعث من جسد حيوان ثائر !

وعلى هذا الوضع بلغوا الشاطىء : الشاب يجذف ، والمرأة تغنى وتسبغ مظاهر الحنان على ابنها .. والابن قد استسلم لها ، وفى نفسه شعور من النفور والسقم ، إذ أدرك أنها تصطنع منظراً زائفاً .. لا لشىء إلا لأنها تحب أن تبدو به أمام الناس !

* * *

● وفى اليوم التالى أقبل الشاب مرة أخرى ، فأصرت أم (أجوستينو) على أن يصحبهما ابنها فى هذه المرة أيضاً .. وتكررت مناظر اليوم السابق !.. ثم انقضت أيام لم يظهر فيها الشاب ، وما لبث أن أقبل مرة أخرى فخرجوا معاً للرياضة .. وأخيراً صار الشاب يفد كل يوم ليصطحب المرأة ، وقد لاح أن الود قد توثق بينهما !.. وكان (أجوستينو) يضطر إلى مرافقتهما فى كل مرة ، وسماع حديثهما ، ومشاهدتهما وهما يسبحان .. حتى كره هذه النزهات ، وانتهى به الأمر إلى أن شرع يبتكر ألف علة وحجة ليتخلف عنها !.. فكان يختفى ، ولا يظهر إلا بعد أن تناديه أمه مراراً ، وتبحث عنه فى كل مكان إلى أن توفق فى النهاية إلى كشف مكانه .. وعندئذ كان يصحبها كارهاً ، لا استجابة لرجائها وإلحافها ، وإنما لأن استياءها وكدرها من عدم ذهابه كانا يثيران إشفاقه !.. وكان يلزم الصمت التام فى القارب ، أملا منه فى أن يدركا ضيقه ، فيتركاه وشأنه .. لكنه تبين فى النهاية أنه أضعف وأكثر تأثراً بالإشفاق واستجابة له من أمه والشاب ، اللذين كان يكفيهما أن يكون معهما فى القارب ، وحسب .. أما أحاسيسه ، فسرعان ما تبين أنهما لم يكونا يحسبان لها حساباً !

وهكذا استمرت النزهات فى القارب ، رغم كل محاولاته للفرار منها !

الفصل الثانى

● كان (أجوستينو) يجلس ذات يوم على الرمال ، خلف مقعد الشاطىء القماشى الذى شغلته أمه ، يتطلع إلى عرض البحر مرتقباً ظهور الزورق الأبيض ، ومتوقعاً أن تلوح أمه محيية الشاب ، منادية إياه كعادتها .. بيد أن الساعة التى اعتاد القارب أن يفد فيها فاتت ولما يظهر . وبدا من استياء أمه وعبوس محياها أنها فقدت كل أمل فى مجيئه ! .. ولطالما ساءل (أجوستينو) نفسه عما قد يكون عليه شعوره فى مثل هذه الحالة ، فكان ينتهى دائماً إلى أن اغتباطه عندئذ سيبلغ من الشدة مبلغاً يعادل ما يبلغه استياء أمه ، على الأقل .. ولكنه دهش فى ذلك اليوم ، إذ أحس بدلا من الاغتباط باستياء مبهم ، وتبين لفوره أن الصغار والنفور اللذين كانا يداخلانه كل يوم بسبب تلك النزهات ، أصبحا فى الفترة الأخيرة من لوازم الحياة بالنسبة له ! .. ومن ثم ساءل أمه ، عما إذا كانا لا يعتزمان الخروج فى نزهتهما البحرية المعتادة فى القارب .. وكانت تحدوه إلى هذا التساؤل رغبة خفية ، غامضة ، فى أن يثير فى نفس أمه الألم ! .. وأجابته بأنها لا تدرى ، وإن كانت ترجح أنهما لن يخرجا فى ذاك اليوم . وظلت جالسة فى مقعدها ، وفى حجرها كتاب مفتوح لم تكن تقرأ فيه ، إذ كان بصرها يهيم باستمرار فى عرض البحر وكأنه

ينشد هدفاً معيناً بين أسراب القوارب وأفواج المستحمين الذين زخر بهم البحر ..

وبعد أن ظل (أجوستينو) وقتاً طويلا خلف مقعد أمه ، يرسم على الرمل بإصبعه أشكالا ، استدار فجأة حتى غدا أمامها ، وقال فى لهجة أحس بأنها كانت مثيرة ، إن لم تكن ساخرة : « أماه .. أتعنين أننا لن نخرج فى القارب اليوم ؟ » .

ولعل أمه أحست بالسخرية فى صوته ، وبالرغبة التى ساورته فى إيلامها .. أو لعل كلماته الرعناء كانت كافية لأن تفجر الغيظ الذى طال بها كبحه ، فرفعت يدها فى حركة غير إرادية ، وهوت بها على خده فى صفعة سريعة ، لم تكن فى حقيقتها موجعة ، لأن الندم داخلها قبل أن تصل راحتها إلى وجنته ! .. ولم ينبس (أجوستينو) ببنت شفة ، بل قفز من مجلسه عن الرمال ، وابتعد وقد نكس رأسه ، متجهاً إلى (الكابين) وسمع أمه تناديه باسمه عدة مرات : « أجوستينو ! .. أجوستينو ! .. » .. ثم كفت عن النداء . وخيل إليه – إذ التفت خلفه – أنه رأى بين أسراب الزوارق ، القارب الأبيض الذى يملكه الشاب .. بيد أنه لم يعد يعبأ بذلك . كان كشخص عثر على كنز فأسرع يخبئه إلى أن تسنح له الفرصة كى يفحصه فى خلوة .. هكذا كان الشعور الذى خامره وهو يفر ليتوارى بالجرح الذى أصاب كرامته ، والذى بدا له شيئاً جديداً لم يكد يصدق حدوثه !

كانت وجنته ملتهبة ، وعيناه مغرورقتين بدموع لم يقو على
قمعها .. فلما خشى أن تنفجر شهقاته قبل أن يلوذ بكوخ على الشاطئ ،
ضاعف من سرعته فى العدو . وفاضت فى نفسه المرارة المتراكمة
من الأيام السابقة التى كان يصحب فيها أمه والشاب على الرغم منه ،
فتولاه شعور بأنه إذا أسلم نفسه للبكاء ، فضفض من أساه ، ووجد
عوناً على أن يفهم ما لتلك الأحداث الغريبة من معان ! .. وبدا له
أن أبسط مسلك يستطيع أن يلجأ إليه ، هو أن يحبس نفسه فى
(الكابين) ، إذ كان من المحتمل أن تكون أمه قد انطلقت فى
القارب ، ومن ثم لن يكون هناك من يعكر عليه خلوته . وارتقى
سلم (الكابين) على عجل ، وفتح الباب وتركه مواربا ، ثم ولج
وجلس على مقعد منخفض فى أحد الأركان ..

* * *

● وانكمش فى جلسته ، وقد رفع ركبتيه إلى صدره ، وأسند
رأسه إلى الجدار ، واحتوى وجهه بيده ، وأخذ يبكى بحرقة .
كانت الصفعة التى تلقاها لا تنفك تتمثل له ، فأخذ يسائل نفسه :
« لماذا كانت يد أمه رفيقة ،مترددة ، مع ما فى عملها من قسوة ؟!..»
وامتزج بشعور الهوان الذى أثارته الصفعة فى نفسه ، ألف شعور
آخر أقسى مضاضة .. ألف شعور جرحت أحاسيسه طيلة تلك
الأيام الأخيرة .. على أن واحداً من هذه المشاعر ظل يراود ذهنه
ملحاً ، هو ذلك الشعور الذى ساوره إذ احتك بصدغه جسد أمه

فى ثوب السباحة المبتل ، وهو يرتجف نابضاً بحيوية طاغية .. وكما
تتطاير سحب الغبار من الثوب إذا نفض ، أثارت فيه تلك الصفعة
– بين ما أثارت من آلام فى ذهنه المحير – ذلك الشعور بجسد أمه وهو
يلاصق خده !.. بل إن هذا الإحساس صار يحتل فى بعض الأحيان
محل الصفعة .. وفى أحيان أخرى كان الشعوران يمتزجان ، حتى
ليحس بحرارة جسدها ولهيب الصفعة معاً ! .. وبينما بدا له أن من
الطبيعى أن يظل خده متوهجاً ، وكأن به ناراً شرعت تخبو ، فإنه عجز
عن أن يفهم سر إلحاح ذلك الإحساس الآخر القديم ، عليه !.. لماذا كان
هذا الإحساس الذى أثاره احتكاك جسد أمه بخده ، هو الوحيد بين
كثير من الأحاسيس الأخرى ، الذى يعاوده فى إصرار ؟ .. ولئن
كان قد عجز عن تفسير الأمر ، إلا أنه خال أن لبس عايه – مهما
يطول به الأجل – سوى أن يعود بذاكرته إلى تلك اللحظة من حياته ،
كى يحس على خده من جديد بحرارة بدن أمه ، والرطوبة العالقة
بصوف ثوب السباحة الخشن !!

ومضى يبكى فى هدوء – وكأنه يخشى أن يزعج استرسال
ذكرياته الأليمة – ويمسح بأطراف أصابعه عن بشرته الندية ،
الدموع التى راحت تتساقط من عينيه فى بطء ، ولكن دون
انقطاع . وكان (الكابين) معتماً ، خانق الجو .. وفجأة ، خامره
شعور بأن ثمة من يفتح الباب ، فساوره أمل فى أن تكون أمه قد
ندمت على ما فعلت ، وتمنى أن تضع يدها فى حنان على كتفه وأن

تدير وجهه نحوها .. بل إن شفتيه تحركتا توشكان أن تنفرجا عن
كلمة (أماه)، لولا أن سمع القادم يخطو إلى داخل (الكابين) ،
ويجذب الباب خلفه .. ثم لم تمتد يد تمس كتفه ، أو تربت
على رأسه !

وما لبث أن رفع رأسه وحدق أمامه ، فإذا به يرى لدى الباب
الموارب صبياً فى مثل سنه تقريباً ، يقف بهيئة من يرتقب فى حذر .
وكان يرتدى (بنطلوناً) قصيراً ، ثنى طرفه إلى أعلى ، وقميصاً
مفتوحاً كأقمصة الملاحين ، تخلل ظهره ثقب كبير . ومن خلال
ثغرة فى سقف (الكابين) انساب شعاع من ضوء الشمس، فسقط
على خصلات من شعر نحاسى اللون ، تكاثف حول عنق الغلام .
أما قدماه فقد كانتا حافيتين ، وبينما أمسك الباب بيديه موارباً ،
راح يحدق فى حذر وانتباه فى شىء ما على الشاطىء الرملى ، وقد
لاح كأنه لم يفطن إلى وجود (أجوستينو) .

وجفف (أجوستينو) عينيه بظهر يده ، وهتف : «ها ..
ماذا تبغى ؟» ، فالتفت الصبى ، وأشار إليه بيده أن لا يتكلم ! ..
وكان له وجه قبيح ، انتثر فيه (النمش) .. ولكن أبرز ما كان
يستلفت الانتباه ، عيناه الزرقاوان ، الحادتان ، السريعتا الحركة..
وخيل إلى (أجوستينو) أنه رأى الصبى من قبل ، فلعله ابن أحد
صيادى السمك ، أو ابن أحد المستحمين .. أو لعله رآه يدفع

القوارب ، أو يؤدى عملا فى المنطقة التى تضم (كابينات)
الشاطىء ..

وقال الغلام بعد لحظة وهو يلتفت إلى (أجوستينو) :

– إننا نلعب «عسكر وحرامية» ! .. ولا ينبغى أن يرونى.

فسأله (أجوستينو) وهو يجفف عينيه فى عجلة :

– ومن أى الفريقين أنت ؟

فأجاب الآخر دون أن يلتفت إليه : «من الحرامية .. بالطبع»
وظل (أجوستينو) يتأمل الغلام ، وهو لا يملك أن يقرر ما إذا
كان قد شعر بميل إليه .. بيد أن شيئاً من الخشونة فى صوت الغلام
استماله وأثار فضوله .. كما خطر له ، بوحى من غريزته ، أن
اختباء الغلام فى الكابين ، وفى تلك اللحظة بالذات ، كان فرصة ..
فرصة لم يكن بوسعه أن يفسر كنهها ، ولكنه رأى أن لا يفلتها
بأية حال من الأحوال . لذلك عاد يسأله : «هل تقبلون أن ألعب
معكم ؟» .

فاستدار إليه الغلام، وحدجه بنظرة سليطة ، ثم قال فى عجلة :
«وكيف نشركك ؟ .. إننا أصحاب نلعب معاً» .

فقال (أجوستينو) فى إصرار غير متورع : «حسناً ..
دعونى ألعب أنا الآخر» .

فهز الغلام كتفيه وقال : «اقتراحك جاء متأخراً .. فقد
أوشكنا أن نفرغ من اللعب» .

– إذن ، أشركونى فى اللعبة التالية !

وتطلع إليه الغلام فى ارتياب ، وهو مأخوذ بإصراره ، ثم قال : « لن تكون ثمة لعبة تالية ، فسننطلق بعد ذلك إلى غابات الصنوبر » .

– سأذهب معكم ، إذا سمحتم لى ..

وبدا العجب على الغلام ، وشرع يضحك بطريقة تنطوى على شىء من القحة والإهانة .. وقال : « إنك غلام ظريف .. أجل .. ولكننا لا نريدك » .

ولم يكن لأجوستينو قبل بمثل هذا الموقف . بيد أن الإلهام الغريزى الذى جعله يسأل الغلام منذ لحظات أن يشركه فى اللعب ، أوحى إليه الآن بحجة قد تقنع الآخر ، فقال فى تردد : « اسمع .. إذا .. إذا أشركتنى فى عصبتك فـ .. فسأعطيك شيئاً » .

فالتفت الآخر لفوره والجشع يطل من عينيه ، وتساءل : « ما الذى ستعطينيه ؟ » .

أى شىء تطلبه ..

وأشار (أجوستينو) إلى نموذج لمركب شراعى ، مجهز بكل قلاعه ، كان على أرض الكابين بين كومة من اللعب الأخرى ، وقال : « سأعطيك هذا » .

فأجاب الغلام وهو يهز كتفيه : « وما جدواه لى ؟ » .

قال (أجوستينو) مقترحاً : « تستطيع أن تبيعه » ؟

فقال الغلام فى لهجة العارف : « لن يقبلوا شراءه .. سيقولون إنه مسروق » .

فأجال (أجوستينو) بصره فيما حوله ، فى حيرة . كانت ثياب أمه معلقة على المشاجب ، وحذاءاها على الأرض .. وكان ثمة منديل ووشاح للرقبة أو اثنان على المنضدة .. لم يكن فى الكابين كله ما يبدو مناسباً لكى يقدمه .. وإذ رأى الغلام حيرته ، قال : نبتى .. هل عندك سجاير ؟ » .

وتذكر (أجوستينو) أن أمه أودعت الحقيبة الكبيرة المعلقة على المشجب ، فى ذلك الصباح بالذات ، علبتين من نوع جيد جداً من السجاير ، فبادر مجيباً وفى صوته رنة الفوز : « أجل ، لدى .. هل تريد بعضاً منها ؟ » .

فقال الآخر فى سخرية وعتاب : « لا أظن !.. ما أغباك !.. هاتها .. أسرع ! » .

وأنزل (أجوستينو) الحقيبة من فوق المشجب ، ومد يده فى جوفها باحثاً ، ثم أخرج العلبتين .. وبسط يده بهما إلى الغلام ، فى هيئة الذى لا يدرى كم يريد الآخر .. فقال هذا فى بساطة ، وهو يتناول العلبتين : « سآخذ الإثنتين ! » .. وإذ ألقى نظرة على غلافيهما ، طقطق بلسانه فى سرور ، وقال : « أواه ! .. إنك ولا بد غنى .. هه ؟ » .

ولم يدر (أجوستينو) بماذا يجيب .. بينما استطرد الغلام يقول :
« إنى أدعى (برتو) .. فما اسمك ؟ » .

وأنبأه (أجوستينو) باسمه ، بيد أن الآخر كان قد كف عن الانتباه إليه ، إذ مضت أصابعه المتلهفة تفض إحدى العلبتين ، ممزقة الورق الذى كان يلفها.. ثم تناول سيجارة وضعها بين شفتيه ، وتناول من جيبه عوداً من الثقاب حكه بجدار الكابين وأشعل به السيجارة . وبعد أن اجتذب ملء فمه من الدخان ، ونفثه من أنفه ، عاد إلى موقفه الأول ، يرقب فى حذر ، مرسلا بصره خلال الشق الذى كان ينفرج عنه مصراعا الباب ..

وبعد لحظة أشار إلى (أجوستينو) أن يتبعه ، قائلا : « هيا بنا .. تعال ! » .. وغادرا الكابين ، واحداً إثر الآخر ، حتى إذا بلغا رمال الشاطىء ، انطلق (برتو) لفوره إلى الطريق الممتد خلف كابينات المستحمين ..

* * *

● وإذ راحا يسيران على الرمل الملتهب ، بين الحسك والأشواك ، قال الغلام : « سنذهب الآن إلى الكهف .. لقد سبقونى إليه .. وإنهم ليبحثون عنى هناك ! » .

فسأله أجوستينو : « أين الكهف ؟ » .

أجاب الغلام : « عند بلاج (فزبوتشى) » .. وكان يمسك سيجارته بين إصبعيه متباهياً — وكان يعرضها للأنظار — ويجتذب

منها أنفاساً كثيفة من الدخان فى تبجح .. ثم سأل رفيقه : « ألا تدخن ؟ » ، فأجاب (أجوستينو) : « إننى لا ألقى للتدخين بالا » — وكأنما أخجله أن يعترف بأنه لم يكن يدخن ، بل لم يحلم يوماً بالتدخين !

وضحك (برتو) قائلا : « لم لا تقول بصراحة إن أمك لا تسمح لك بالتدخين ؟.. قل الحق ؟ » — وكانت لهجته منطوية على احتقار يفوق ما ينبغى بين صديقين ! — ثم قدم إلى (أجوستينو) سيجارة ، وهو يقول : « هيا .. دخن أنت أيضاً » .

وكانا قد بلغا حافة البحر ، وأخذا يسيران حافيين على الحصى الخشن بين أحواض الزهور الجافة .. ورفع (أجوستينو) السيجارة إلى شفتيه ، وجذب منها بضعة أنفاس ، دون أن يسمح لغير قليل من الدخان بأن يدخل فمه ، ثم بادر إلى نفثه فى الحال دون أن يبتلعه :. فضحك (برتو) فى استهزاء وصاح : « أو تسمى هذا تدخيناً ؟ ما هكذا يكون .. انظر ..! » .. وتناول السيجارة ، فاجتذب منها الدخان فى عمق ، وعيناه الرواغتان تجولان فى محجريهما ، ثم فغر فاه على سعته ، وقربه من عينى (أجوستينو) .. فلم ير هذا فى فمه شيئاً سوى لسانه وقد التوى عند حلقه : وقال (برتو) وهو يقفل فمه ثانية : « تأمل الآن ! » .. ثم نفث فى وجه (أجوستينو) سحابة من الدخان ، فسعل (أجوستينو) وأخذ

يضحك فى الوقت ذاته فى انفعال .. بينما استطرد برتو : « والآن .. جاء دورك » .

ومر بهما « ترام » يرسل صفيراً ، وستائر نوافذه ترفرف مع النسيم .. واجتذب (أجوستينو) ملء فمه من الدخان ، فابتلعه بعناء كبير ، ولكنه لم يحسن إرساله ، فتولته نوبة قاسية من السعال .. وإذ ذاك أخذ (برتو) السيجارة منه ، ثم ضربه بشدة على ظهره براحة يده ، قائلا : « برافو ! .. ليس من شك فى أنك ستغدو مدخناً » !

وسارا بعد هذه التجربة صامتين ، فاجتازا سلسلة من (البلاجات) طليت كابيناتها بألوان بهيجة ، وتناثرت فى كل نواحيها المظلات المخططة الواسعة ، وأقواس النصر التى لا معنى لها .. وكان الفضاء الممتد بين الكابينات على الشاطىء يزخر بالرواد الذين جاءوا يستمتعون بعطلاتهم ، كما ازدحم البحر المتألق المياه — تحت أشعة الشمس — بالسابحين .. وتساءل (أجوستينو) الذى كان مضطراً إلى أن يغذ السير ليلحق بصديقه الجديد : « أين بلاج (فزبوتشى) ؟ » .

— إنه آخر (البلاجات) جميعاً ..

وبدأ (أجوستينو) يفكر فى أنه يحسن به أن يكر عائداً ، فإن أمه ولا بد تبحث عنه الآن ، إذا لم تكن قد ذهبت مع صديقها :

بيد أن ذكرى تلك الصفعة هدأت من وساوسه .. وخيل إليه أنه ، بذهابه مع (برتو) ، كان ينفذ انتقاماً غامضاً له ما يبرره !

وفجأة ، توقف (برتو) ليسأله : « ما رأيك فى إخراج الدخان من أنفك ؟ . هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ » .. وهز (أجوستينو) رأسه بالنفى ، فأمسك رفيقه بعقب سيجارته بين شفتيه ، واجتذب نفساً من الدخان ، ثم أطلقه خلال خياشيمه ، واستطرد : « والآن ، سأطلق الدخان خلال عينى .. على أنك يجب أن تضع يدك على صدرى وأن تحدق فى عينى » .. فاقترب (أجوستينو) فى سذاجة تامة ، ووضع يده على صدر (برتو) ، وأخذ يحملق فى عينيه مرتقباً رؤية الدخان وهو ينساب منهما . لكن (برتو) ضغط — فى حركة غادرة — السيجارة المشتعلة على ظهر يد (أجوستينو) فى قوة ، ثم طوح بالعقب بعيداً ، وقفز طروباً وهو يصيح : « واهاً لك أيها الغبى الأبله .. إنك لا تعرف شيئاً على الإطلاق ! » .. وأعمى الألم (أجوستينو) ، وكان أول ما تبادر إليه أن يلقى بنفسه على (برتو) ويضربه . وكأنما أدرك (برتو) ما كان موشكاً أن يحدث ، فصمد فى موقفه ، وأطبق قبضتيه ، ثم وجه إلى بطن (أجوستينو) لكمتين قويتين ، فكاد هذا يعجز عن التنفس .. بينما أردف (برتو) فى انفعال : « لست ممن يقنعون بالكلام .. فإذا فعلت ما يستحق الضرب فلن أتورع عن ضربك » .



وأمسك (برتو) فى هذه المرة برأسه فدست تحت ذراعه حتى كاد يخنقه ..

واندفع (أجوستينو) نحوه مرة أخرى فى سورة من الغضب ، ولكنه أحس بأنه جد ضعيف ، وأيقن من الهزيمة .. وأمسك (برتو) فى هذه المرة برأسه فدسه تحت ذراعه حتى كاد يخنقه .. ولم يقو (أجوستينو) على المقاومة ، فأخذ يتوسل إليه فى صوت مكتوم أن يطلقه .. وأطلقه (برتو) أخيراً ، ثم قفز إلى الخلف ، وثبت قدميه فى الأرض متحفزاً للصراع .. غير أن (أجوستينو) الذى كان قد سمع قرقعة عروق رقبته ، أذهله ما أوتى الغلام من قوة وحشية خارقة .. ولم يكد يصدق أن يلقى فجأة — هو (أجوستينو) الذى طالما أبدى الرفق نحو كل امرئ — مثل هذه المعاملة الوحشية ، والقسوة المتعمدة !.. كان أهم شعور انتابه هو الدهشة لمثل هذه القسوة ، فقد أذهلته .. ولكنها فى الوقت ذاته فتنته بما فيها من طرافة لم يعهدها ، ولأنها فى حد ذاتها كانت عارمة .. وقال لاهثاً ، متلعثماً : « إننى لم أوذك فى شىء .. بل أعطيتك تلك السجاير .. فإذا بك .. » وعجز عن أن يتم العبارة ، إذ اغرورقت عيناه بالدموع .. فقال (برتو) فى جفاء : « آه .. أأنت ممن يبكون ؟.. أتريد أن أرد إليك سجايرك ؟ » لست أريدها .. خذها وعد إلى أمك ! » .

فقال (أجوستينو) وهو يهز رأسه فى اكتئاب : « لا داع .. إنما ذكرت أمر السجاير عفواً .. أرجو أن تستبقيها ! » .

فقال (برتو) : « إذن ، هيا بنا .. لقد أوشكنا على غايتنا » .

* * *

● وكان الحرق الذى أصاب يد (أجوستينو) يسبب له ألماً مبرحاً ، فرفعه إلى فمه ، وهو يتلفت حوله .. كان ذلك الجزء من الشاطىء لا يشتمل على غير بضعة كابينات جد قليلة ، لا تكاد تزيد على الخمسة أو الستة ، تناثرت على مسافات متباعدة .. وكانت كابينات حقيرة ، صنعت من الخشب الرخيص .. وكان الشاطىء والبحر ساعتئذ خاليين من الناس ، اللهم إلا بضع نساء أوين إلى ظل قارب جذب إلى البر ليكون بمأمن من المد .. وكان بعضهن واقفات ، والبعض مستلقيات على الرمال ، وقد ارتدين جميعاً ثياباً للسباحة قديمة الطراز ، ذات سيقان طويلة وشيت حوافها بأشرطة بيضاء مجدولة .. وقد شغلن بتجفيف أجسادهن ، وتعريض أطرافهن البيضاء للشمس . وكانت ثمة لوحة زرقاء تحمل عبارة (حمام أمريكو فيزبونتشى) .. وكابين صغير أخضر منخفض السقف ، هبط عن مستوى الشاطىء غائصاً فى الرمال . وكان من الجلى أن الكابين ملك لحارس (البلاج) فى ذلك الجزء المقفر من الشاطىء الذى كان يمتد بعد (حمام فيزبونتشى) إلى أقصى مرامى البصر ، دون أن تتخلله أية كابينات أو دور .. فضاء مقفر ، لا تكسوه سوى رمال تذروها الرياح ، بين زرقة البحر المتألقة ، وخضرة أشجار الصنوبر المغبرة ..

وكان أحد جوانب الكابين يستتر بأكمله وراء كثبان الرمال التى كانت فى تلك البقعة أكثر ارتفاعاً منها فى البقاع الأخرى .. فإذا بلغت أعلى هذه الكثبان ، رأيت خيمة مضروبة ، من قماش ذى لون محمر كلون الصدأ الحائل ، وكأنه اقتطع من شراع قديم . وكانت هذه الخيمة مشدودة من أحد أطرافها إلى وتدين غيبا فى الرمل ، ومن طرف آخر مشدودة إلى الكابين ..

وقال (برتو) : « ها هو ذا كهفنا ! » .

وكان ثمة رجل يجلس تحت الخيمة إلى منضدة عرجاء ، منهمكاً فى إشعال سيجارة ، وقد استلقى حوله على الرمال ولدان أو ثلاثة .. واندفع (برتو) فى قفزة عالية فهبط عند قدمى الرجل ، بينما تقدم (أجوستينو) فى حرج واستحياء ، فقال (برتو) مشيراً نحوه : « ها هو ذا بيزا » .. ودهش إذ سمع نفسه يلقب — هكذا سريعاً — باسم كهذا ، إذ لم تكن قد انقضت بعد خمس دقائق مذ أنبأ (برتو) بأنه ولد فى (بيزا) !

واستلقى (أجوستينو) على الأرض إلى جوار الآخرين .. فإذا الرمال فى تلك البقعة ليست فى نظافة تلك التى على (البلاج) ، إذ اختلطت بها شظايا من قشور جوز الهند ومن الخشب ، وقطع من الفخار ، وكافة أنواع النفايات .. وكانت كلها قد تجمعت فى لطخ متيبسة هنا وهناك ، بتأثير ما كان يلقى عليها من الكابين من ماء قذر .. ولاحظ (أجوستينو) أن الصبية — وكانوا أربعة —

يرتدون ثياباً بالية .. كان من الجلى أنهم مثل (برتو) ، أبناء ملاحين أو أبناء نفر من عمال الشاطئ ..

وهتف (برتو) ولما يتمالك بعد أنفاسه : « لقد كان فى (سبيرانزا) ، ويقول إنه يريد أن يلعب (عسكر وحرامية) هو الآخر ، ولكن اللعبة انتهت .. أليس كذلك ؟ .. لقد قلت لك إن اللعبة انتهت » .

وفى تلك اللحظة انبعثت صيحة تكرر : « هذا غش !.. هذا غش ! » .. والتفت (أجوستينو) ، فإذا عصبة أخرى من الصبية تجرى مقبلة من ناحية الشاطئ ، فحدس أن أفرادها هم الذين يقومون بدور الشرطة .. وأقبل فى المقدمة فتى قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، عريض المنكبين ، فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقد ارتدى ثوباً من أثواب السباحة .. وتلاه – لدهشة (أجوستينو) – غلام زنجى ! .. أما الثالث فكان صبياً أشقر ، أدرك (أجوستينو) من شكله وجمال جسمه أنه أفضل نشأة من الآخرين .. بيد أنه حين اقترب ، ظهر ثوب السباحة الذى كان يرتديه مليئاً بالثقوب ، كما كانت تشوب وجهه المليح ذا العينين الزرقاوين الجميلتين ، مسحة من خشونة ، مما نم عن أنه ينتمى إلى طبقة الآخرين .. ثم تبع هؤلاء الثلاثة أربعة آخرون ، تراوحت أعمارهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .. وكان الفتى الكبير ، الضخم ، أكبر سناً من الآخرين بكثير ، حتى لقد بدا من الغريب

– فى البداية – أن يخالط مثل هؤلاء الصبية . بيد أن وجهه المنتفخ الذى كان يشبه فى لونه رغيفاً لم يكتمل نضجه ، وقسماته الضخمة الخالية من أى تعبير ، والموحية بغباء فطرى ، كانت كافية لأن تفسر ملازمته لهؤلاء الصغار .. وكانت رقبته لا تكاد تبين لفرط قصرها ، وجذعه الناعم ، الخالى من الشعر ، يناهز كتفيه فى العرض ..

وعلى حين غرة صرخ هذا الفتى فى (برتو) : « لقد اختبأت فى كابين !.. أنكر إذا كانت لديك جرأة .. إن الكابينات لا تدخل فى نطاق مخابئنا وفقاً لقواعد اللعب » .

فأجاب (برتو) فى مثل فورته : « هذا كذب .. أليس كذلك يا بيزا ؟ » .. وأضاف وهو يلتفت إلى (أجوستينو) ، متسائلا فى إنكار : « هل كنت مختبئاً فى كابين ؟.. لقد كنا نقف معاً بجوار كابين فى (سبيرانزا) ورأيناك تمر بنا .. أليس كذلك يا بيزا ؟ » .

ولم يقو (أجوستينو) على الكذب ، فقال : « إنك لتعرف أنك كنت مختبئاً فى كابينى » .. فصرخ الثالث وهو يهز قبضة يده تحت أنف (برتو) : « أرأيت ؟ .. لسوف أحطم رأسك أيها الكاذب ! » .

وصرخ (برتو) فى وجه (أجوستينو) : « ألم أقل لك أيها الواشى أن تمكث حيث كنت ؟.. عد إلى (ماما) ، فذاك هو

المكان الخليق بك ! » .. وتملكه غيظ جامح .. هياج وحشى
أدهش (أجوستينو) وأذهله ! .. بيد أن الحركة التى كان يهدده
بها ، أدت إلى وقوع إحدى علبتى السجاير من جيبه ، فانحنى
ليلتقطها ، ولكن الفتى الثالث كان أسرع منه – رغم بدانته –
فانحنى منقضاً على العلبة ، ولوح بها فى الهواء وهو يصيح فى فرحة
الفوز : « سجاير !.. سجاير ! » .

وصرخ (برتو) وهو ينقض عليه : « ردها .. إنها ملكى ..
لقد أعطانيها (بيزا) وعليك أن تردها ! » .

فتراجع الآخر خطوة ، وتريث حتى صار (برتو) فى
متناوله ، ثم وضع علبة السجاير بين أسنانه ، وشرع يوجه لكمات
محكمة إلى بطن (برتو) بقبضتيه .. وانتهى بأن ركل قدميه ، فألقاه
أرضاً ، فى عنف ! .. وظل (برتو) يصيح وهو ينقلب على
الرمال : « ردها إلى ! » .. ولكن الفتى أطلق ضحكة معتوهة ،
وصاح : « إن معه غيرها .. عليه يا أولاد ! » .. فإذا بالغلمان
جميعاً ينقضون على (برتو) فى إجماع أدهش (أجوستينو) ..
وانقضت لحظة لم يكن يبدو منهم خلالها سوى كتلة من أجساد
تتقلب عند قدمى الرجل المتقدم فى السن ، وقد اشتبك بعضها
ببعض ، ولفتها سحابة من الرمال الثائرة .. والرجل مستمر فى
التدخين عند المائدة ، فى هدوء !

وأخيراً ، تخلص الصبى الأشقر – الذى تبين أنه كان أخفهم
حركة – من كومة اللحم المتشابكة ، ونهض ملوحاً بعلبة السجاير
الثانية فى انتصار .. وإذ ذاك نهض الآخرون تباعاً . وكان (برتو)
آخرهم جميعاً ، وقد اكفهر وجهه الصغير ، القبيح ، الذى شوهه
النمش ، ثم صرخ وهو يهز قبضته باكياً : « يا لكم من خنازير !..
لصوص ! » .

وخالج (أجوستينو) شعور غريب ، وطريف ، إذ رأى
أن الذى كان يعذبه أضحى بدوره معذباً ، ولاقى من المعاملة
الجاحدة ما لاقى هو من قبل !.. وعاد (برتو) يصرخ :
« خنازير ! .. خنازير ! » .. فتقدم الفتى الكبير منه ، وهبط
بقبضته على أذنه فى لكمة عنيفة ، جعلت زملاءه يرقصون طرباً ،
وقال : « هل تبغى مزيداً ؟ » .. فاندفع (برتو) كالمجنون إلى
ركن الكابين ، وانحنى فأمسك بيديه حجراً ضخماً وطوح به نحو
غريمه ، الذى أرسل صفيراً أعرب به عن تحفزه وهو يقفز متفادياً
الحجر .. وعاد (برتو) يعوى : « أيها الخنزير ! » .. وكان
يبكى غيظاً ، ولكنه تراجع متعقلا ، ولاذ بركن من المكان ،
وقد انبعثت شهقاته عالية ، عنيفة ، كما لو كانت تفضفض بعض
مرارة فظيعة ملأت نفسه ! .. بيد أن زملاءه كانوا قد كفوا عن
الاهتمام به ، وعادوا إلى الاستلقاء على الرمال : وعندئذ فتح الفتى
الكبير أحد صندوقى السجاير ، وفتح الصبى الأشقر الصندوق

الآخر . وفجأة قال الرجل ، الذى كان قد استمر جالساً إلى المنضدة لايتحرك أثناء العراك : « ناولانى هذين الصندوقين ! » .

وتطلع (أجوستينو) إليه .. كان طويلا ، بديناً ، فى نحو الخمسين من عمره .. له وجه هادئ الملامح ، يخدع الرائى إذ يوحى بالطيبة ! .. وكان أصلع ، ذا جبهة بارزة غريبة ، كأنها السرج ، وعينين براقتين ، وأنف أحمر معقوف ذى منخارين واسعين ، مفعمين بعروق قرمزية تستبشع النظر إليها .. كما كان له شاربان متدليان ، يستران فماً معوجاً ، وسيجاراً بين شفتيه .. وكان يرتدى قميصاً حائل اللون ، وسروالا — (بنطلوناً) — من القطن الأزرق ، تصل إحدى ساقيه إلى ملتقى الساق بالقدم ، فى حين ثنيت الأخرى إلى ما تحت الركبة ؛ والتف حول بطنه حزام أسود من القماش .. وكانت ثمة ظاهرة غريبة زادت من التقزز الذى شعر به (أجوستينو) نحوه فى البداية .. تلك هى أن (سارو) — وكان هذا اسمه — أوتى ست أصابع فى كل من يديه بدلا من خمس .. وكان هذا يظهره ضخماً ، ويظهر أصابعه كزوائد مبتورة ! .. ولم يستطع (أجوستينو) أن يحول عينيه عن تينك اليدين ، إذ عجز عن أن يبت فيما إذا كانت الأصبع الزائدة تكراراً لأولى الأصابع أو أوسطها أو آخرها ، فقد كانت جميعاً تبدو متساوية فى الطول ، فيما عدا الإصبع الصغيرة التى تدلت من راحته كغصن صغير فى أسفل جذع شجرة وارفة !.. وتناول

(سارو) السيجار من فمه ، وكرر فى بساطة : « ما أمر هذه السجاير ؟ » :

ونهض الصبى الأشقر فوضع العلبة على المنضدة ، فقال (سارو) : « أحسنت صنعاً يا ساندرو » .. وإذ ذاك صاح الفتى الكبير متحدياً : « وهب أننى لم أعطك علبتى ؟ » .

فصاحت بضعة أصوات فى آن واحد : « انزل عنها يا تورتيا ، فهذا خير لك » .. وأجال (تورتيا) بصره حوله ، ثم نظر إلى (سارو) الذى حدجه بنظرة خلال عينيه الضيقتين نصف المغمضتين ، وأصابع يده اليمنى الست على علبة السجاير .. وإذ ذاك تقدم الفتى فوضع العلبة على المنضدة قائلا : « لكن .. ولكن هذا ظلم ! » .

فقال (سارو) فى صوت ناعم ، رقيق : « والآن ، سأقسم السجاير » .. وبدون أن يحرك السيجار من فمه ، أجال بصره فى الأولاد ، وفتح إحدى العلبتين ، وتناول سيجارة بأصابعه المبتورة التى بدت كما لو كانت عاجزة عن الإمساك بها ، ثم رماها إلى الزنجى قائلا : « إليك يا هومز ! » .. ثم تناول أخرى وألقى بها إلى واحد من الآخرين .. وثالثة طوح بها إلى (ساندرو) الذى ضم أصابعه ليتلقاها .. ورابعة سددها مباشرة إلى وجه (تورتيا) الجامد .. ومضى يوزع السجاير على الباقين .. وسأل (برتو) الذى كان يكتم شهقاته ، بعد أن انضم فى صمت إلى الآخرين : « أتريد

واحـــدة ؟ » .. فهز الصبى رأسه فى ذلة ، وإذ ذاك ألقيت إليه
سيجـــارة . وإذ هم (سارو) بأن يغلق العلبـة التى كانت ما تزال
ممتلئة حتى نصفها ، توقف وقال لأجوستينو : « وأنت يا بيزا ؟ » ..
وود (أجوستينو) أن يرفض ، لولا أن لكزه (برتو) فى ضلوعه
وهمس : « اطلب واحدة أيها الغبى ، كى ندخنها معاً فيما بعد ! » ..
ومن ثم قال (أجوستينو) إنه راغب فى سيجـــارة ، فنال بدوره
واحدة .. ثم أقفـل (سارو) العلبـة ، فصـاح الأولاد جميعاً :
« والباقى ؟ .. والباقى ؟ » .

وأجاب (سارو) فى هدوء : « ستأخذون الباقى فى يوم آخر ..
خذ يا (بيزا) السجاير ، واذهب فضعها فى الكابين » .. وتقبل
الغلمان قراره بصمت تام ، بينما أخذ (أجوستينو) العلبتين وهو
بادى الانفعال ، وتخطى الأجساد المستلقية على الأرض ، وسار إلى
الكابين . وكان الكابين مؤلفاً من حجرة واحدة ، راق له صغرها
— إذ بدت كبيوت القصص الخرافية — وكان لها سقف منخفض
مصنوع من ألواح كسيت بطلاء من الجير الأبيض ، أما الجدران
فكانت من ألواح غير مصقولة . وكانت ثمة نافذتان صغيرتان ،
يتسرب خلالهما نور لطيف .. نافذتان كاملتا الحواف ، ذاتا ألواح
زجاجية مربعة صغيرة ، وأكرتين ، وستارين .. بل كان ثمة وعاء
أو اثنان للزهور .. وكان السرير يشغل أحـد الأركان ، وقد نسق
بعناية ، وعليه وسادة ذات كساء نظيف ، ولحاف أحمر .. وفى

ركن آخر ، كانت ثمـة منضـدة مستديرة وثلاثة مقاعـد صغيرة
منخفضة .. وعلى الرخام الذى علا خزانة كبيرة للثياب ، كانت
ثمة زجاجتان من تلك الزجاجات التى تضم فى جوفها نماذج لمراكب
شراعية أو بخارية .. وكانت ثمة أشرعة معلقة إلى مشاجب على جميع
الجـدران ، وزوج من المجاذيف ، وبعض لـوازم البحر . وشعر
(أجوستينو) بأنه يتمنى لو يمتلك كوخاً بديعاً ، نظيفـاً ، مريحاً ،
كهذا . وسار إلى المنضدة التى كان يعلوها وعاء كبير ، مصنوع ،
من الصينى ، امتلأ بأعقاب سجـاير لم تدخن إلى نهايتها .. فوضـع
العلبتين ، وخرج ثانية إلى ضوء الشمس ..

* * *

● وكان جميع الأولاد منبطحين على وجوههم على الرمال حول
(ساندرو) الذى كان يدخن فى نشـوة ظاهرة .. وكانوا وهم فى
ذلك الوضع يتناقشون فى أمر لاح أنهم لم يتفقوا بشأنه ، إذ كان
(ساندرو) فى تلك اللحظة يقول : « أؤكد لـكم أنه .. هو » .

فقال آخر بصـوت مفعم بالإعجاب : « إن أمه جميلة حقـاً ..
إنها أبدع امرأة على الشاطىء ! لقد تسللت و (هومز) يوماً تحت
كابينها لنراها وهى تخلع ثيابها ، ولكن قميصها وقع على الثغرة التى
كنـا ننظر خلالهـا ، فلم نستطـع أن نرى شيئاً .. يا لساقيها ! ..
ويا لثدييها ! » ؟

فقال صوت ثالث : « ما أظن أحداً رأى معها زوجاً ! » .

– لا تحمل هماً ، فهى تعرف كيف تعزى نفسها .. أتدرى مع من ؟ .. مع ذلك الشاب الذى يقيم فى (فيلا سوريسو) .. الشاب الأسمر .. إنه يصطحبها إلى عرض البحر فى قاربه ، كل يوم !

وقال آخر فى خبث : « إنه ليس الوحيد .. فهى لا تتورع عن مصاحبة أى إنسان » .

وهتف آخر فى إصرار : « ولكنى أعلم أن الغلام ليس .. » .

وفجأة ، قال (ساندرو) : « قل لنا يا بيزا .. أليست أمك تلك السيدة التى فى (سبيرانزا) ؟ .. إنها فارعة ، سمراء ، طويلة الساقين ، ترتدى ثوب سباحة مخطط من قطعتين .. ولها شامة على الجانب الأيسر لفمها » .

فتساءل (أجوستينو) فى قلق : « بلى .. لماذا ؟ » .

فصاح (برتو) فى انتصار : « هى .. هى » .. ثم استطرد فى نوبة من الغيرة والازدراء : « وأنت هناك ستار لها .. ألست كذلك ؟ .. إنكم تتنزهون معاً .. هى ، وأنت ، وعشيقها .. إنك الستار الذى يتواريان خلفه .. ألست كذلك ؟ » .. وفهمه الجميع لهذه الكلمات .. حتى (سارو) بدت على فمه ابتسامة ، خلال شاربيه .. فقال (أجوستينو) وقد تضرج وجهه ، وفهم بعض ما قصد الصبى : « لست أدرى ما الذى ترى إليه ؟ » .

وود أن يحتج ، لولا أن نكاتهم الوقحة أثارت فى نفسه شعوراً غريباً ، غير متوقع ، من الرضى القائم على القسوة ! .. وكأنما ثار

له أولئك الغلمان بتلك الكلمات – دون أن يدروا – مما ألحقته به أمه من هوان وصغار ، فى كل تلك الأيام الماضية ! .. على أنه فى الوقت ذاته بهت جزعاً ، لإدراكهم كل هذا القدر من شئونه الخاصة !

وعاد صاحب الصوت المتخابث يقول : « يا للحمل البرئ الصغير ! » .. وتبعه (تورتيا) فى جد ساخر : « بودى لو أعرف ما يفعلان ، فهما يوغلان دائماً فى البحر .. ألا قل لنا يا (بيزا) ماذا يفعلان .. هل هو يقبلها ؟ .. تكلم ! » .

وألصق ظهر يده بشفتيه ، وطبع قبلة ذات صوت مرتفع .. فقال (أجوستينو) ووجهه يلتهب خجلا : « صحيح إننا نذهب بعيداً عن الشاطىء للاستحمام .. » .

فانبعثت عندئذ أصوات تقول معاً فى سخرية لاذعة : آه .. صحيح .. للاستحمام ! » .

– إن أمى تسبح فى البحر .. وكذلك (رينزو) ..

فقال (تورتيا) مصدقاً على قوله ، وكأنما عثر على خيط كان تائهاً فى ذاكرته : « آه .. أجل .. (رينزو) .. هذا اسمه .. (رينزو) ، الشاب الأسمر الطويل » .. ثم عاد (برتو) يتساءل فجأة : « وماذا يفعل رينزو و (ماما) معاً ؟ .. أهكذا يفعلان ؟ » .. وأشار بيده إشارة ذات معنى ، واستطرد : « وتقنع أنت بالنظر ؟ » .. فهتف (أجوستينو) وهو يجيل البصر حوله فى ذعر : « أنا ؟ » .

وعندئذ انفجروا جميعاً ضاحكين ، وتقلبوا على الرمل فى ابتهاج ومرح : ولكن (سارو) ظل يتأمل الغلام فى اهتمام دون أن يبدى حراكاً ؛ وتلفت (أجوستينو) حوله فى حيرة ، كمن ينشد العون !.. وكأنما تأثر (سارو) لنظرته ، فأخرج سيجارة من فمه ، وقال : « ألا ترون أنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق ؟ » .

وعندئذ انقطع الضجيج فى الحال ، وتساءل (تورتيما) وقد عز عليه أن يفهم ما كان يقصده سارو : « كيف تقول إنه لا يعرف ؟ » :

فكرر (سارو) فى بساطة : « لا يعرف .. » .. ثم التفت إلى (أجوستينو) وقال وقد ألان من صوته : « قل لى يا بيزا : ماذا يفعل الرجل والمرأة إذا اجتمعا ؟ :: ألا تدرى ؟ » .

وأمسكوا جميعاً أنفاسهم وأرهفوا أسماعهم .. بينما حملق (أجوستينو) فى (سارو) الذى ظل يدخن ويراقبه خلال أجفانه نصف المطبقة ، ثم التفت مجيلا بصره فى الغلمان ؛ فإذا هم جميعاً يكظمون الضحك .. فردد فى لهجة آلية ، وقد خيل إليه أن غمامة تربن على بصره : « رجل .. وامرأة ؟ » .

فأجابه (برتو) فى قحة ليزيده إيضاحاً : « أجل .. أمك وريتزو ؟ ! » .

وهم (أجوستينو) بأن يقول : « لا تتكلم عن أمى ! » .. ولكن السؤال أيقظ فى نفسه سرباً من المشاعر والذكريات ، فارتبك وعز

عليه أن يحير قولا ، وإذ ذاك قال (سارو) يحسم الأمر ، وهو يحول سيجاره من أحد ركنى فمه إلى الركن الآخر : « إنه لا يعرف .. من منكم أيها الأولاد ينبئه ؟ » :

وتلفت (أجوستينو) حوله حائراً :: كما لو كان فى مدرسة .. ولكن ، ما أغرب المدرس ! وما أعجب زملاء الدراسة !.. وتصايح الأولاد جميعاً فى وقت واحد : « أنا .. أنا .. أنا ! » .. وطاف بصر (سارو) ، متردداً ، بتلك الوجوه المتحرقة لهفة وتنافساً على الكلام ، ثم قال : « ما أراكم أنتم بدوركم تدرون .. إن ما تعرفونه ليس غير أقاويل .. فدعوا من يعرف ، حق المعرفة ، يخبره » :

ورآهم (أجوستينو) يتبادلون النظرات فى صمت ، ثم صاح أحدهم يرشح من يصلح فى رأيه لهذه المهمة : (تورتيما ! » .. فأشرق وجه هذا الفتى بوميض من زهو مغرور .. وأوشك أن ينهض واقفاً ، لولا أن قال (برتو) والحقد يفيض من صوته : « إن ما سيقوله قصة من تأليفه !.. إنها مجموعة من الأكاذيب ! » .

فصاح (تورتيما) وهو ينقض على برتو : « ماذا تعنى بما سميته مجموعة من الأكاذيب ؟.. إنك أنت الذى تلفق الأكاذيب ، يا ابن الحرام » :: بيد أن (برتو) كان فى هذه المرة أسرع منه حركة ، فراغ منه ، وأخذ من خلف أحد أركان الكابين يلوى قسمات وجهه ، ويخرج لسانه لتورتيما ، وقد طفح وجهه الأحمر المشوه

بالنمش ، بحقد طاغ .. فاكتفى (تورتيما) بأن راح يتوعده بقبضة يده ، وهو يصيح : « ليتك تجرؤ على المجيء ! » .. بيد أن هـذا التدخل من (برتو) أضاع عليه الفرصة لأن يقص ما يعرفه ؛ فأجمع الأولاد أمرهم على اختيار (ساندرو) لتلك المهمة .. وعقد هذا ساعديه على صدره الأسمر العريض الذى لمعت فيه شعيرات ذهبية ، وتقـدم فى ملاحته ورشاقته إلى حلقـة الأولاد المستلقين على الرمال . ولاحظ (أجوستينو) أن ساقيـه السمراوين القويتين لاحتا – بسبب الشعر الأصفر الثابت فيهما – مغبرتين بتراب ذهبى ، كما بدا بعض الشعر من أطراف ساقى ثوب السباحة .. وما عتم الفتى أن قال فى صوت صاف جهورى : « الأمر غاية فى البساطة ! » .

.. ثم أخـــذ يتكلم فى تؤدة ، مستعيناً بإشارات كانت واضحة المعانى ، فى غير وقاحة ، شارحاً لأجوستينو ما كان هـذا الأخير يعـرفه من قبل ، وإن كان قد نسيـه ، كأنما كان فى سبات عميق ! .. وكان إسهاب (ساندرو) مصحوباً بإيضاحات أخرى أقل جدية ووقاراً .. فأخذ بعض الأولاد يشيرون بأيديهم بحركات خليعـة ، وصب بعضهم فى أذنى (أجوستينو) كلمات وقحة بذيئة ، لم يسمعها من قبل ! وقال اثنان منهم : «سنريه ما يفعلان » .. ثم أخـــذ كل منهما يتقلب ويتمرغ فى أحضان الآخر على الرمال الساخنة :

* * *

● وإذ اطمأن (ساندرو) إلى أنه نجح فى شرحه ، ابتعد ليفرغ من تدخين سيجارته على انفـراد .. وما أن خفت الضجيج ، حتى تساءل (سارو) : «هل فهمت الآن ؟ » .. فهز (أجوستينو) رأسه بالإيجاب .. والواقع أنه لم يفهم الفكرة بقدر ما امتصها ، كما يمتص المـرء دواء ، أو سماً ، لا يستشعر تأثيره ، وإن كان من المؤكد أن أعراضه لن تلبث أن تظهر فيما بعـد .. ولم تكن تلك الفكرة قد تسربت إلى عقله الفارغ ، المحير ، المعذب ، وإنمـا تسربت إلى جزء آخر من كيانه .. إلى قلبه المفعم بالمرارة .. أو إلى أعماق صدره الذى تلقاها مشدوهاً .. كانت كجسم لامع ، وهاج ، لا يستطيع المرء أن ينظـر إلى ما يشعه من بريق متألق ، ومن ثم فهـو يقنع – فى تعرف شكله الحقيقى – بالحدس والتخمين ! .. بل لقد أحس أن هـذا الشيء كان كامناً فى نفسه دائماً ، وإن لم يستشعره فى دمه إلا الآن !

وسمع صوتاً خلفه يقول: « ريتزو ، وأم بيزا .. تعال نجرب .. أنا ريتزو وأنت أم بيزا » ! .. والتفت فجأة ، فرأى (برتو) يتقدم فى تردد فينحنى لغلام آخر قائلا : «هل يتاح لى أن أحظى بصحبتك فى قاربى يا سـيدتى ؟ .. لسوف أخرج للاستحمام فى البحـر .. وسيصحبنا بيزا » .. وإذ ذاك استـولى على (أجوستينو) غضب أهوج ، فانقض على برتو صارخاً : «إننى أحرم عليك أن تتحدث عن أمى » ! .. وقبـل أن يدرى ما كان يحدث ، ألفى نفسه ملقى على

ظهره فوق الرمال ، وركبة (برتو) تثقل صـدره ، بينما انهالت قبضتاه على وجهـه باللكمات ! .. وود لو يبكى ، لكنه فطن إلى أن الدموع لن تؤدى إلا إلى إثارة مزيد من السخـرية .. ومن ثم كبحها فى جهد كبير ، ثم ستر وجهه بذراعه وجمـد فى رقدته كالميت .

وتركه (برتو) بعد برهة ؛ فأحس بأنه عومل شر معاملة .. وما لبث أن تسلل فجلس عند قدمى (سارو) .. وكان الأولاد منهمكين فى الحديث عن أمر آخر .. وفجأة ، قال أحدهم لأجوستينو : « هل أنت من قوم أغنياء ؟ » :

وداخل (أجوستينو) خوف لم يدر معه ماذا يقول .. على أنه ما لبث أن أجاب : « أظن ذلك » .

— كم لديكم ؟.. مليون ؟.. مليونان ؟.. ثلاثة ملايين ! ؟

وأحس (أجوستينو) بحيرة ، فقال : « لست أدرى » ؛

— هل لكم دار كبيرة ؟

فأجاب أجوستينو : « نعم » .. وكأنما اطمأن إلى ما سرى فى الحديث من ود واهتمام ، وداخله الزهو بما تملكه أسرته ، فاستطرد قائلا : « إن دارنا تضم عشرين غرفة ! » .

وانبعث من أحـد الأولاد صيحة نمت عن دهشة وإنكار .. ولكن (أجوستينو) مضى قائلا : « لدينا حجرتا استقبال .. وهناك غرفة مكتب أبى .. » .

فانبعث صوت مكذب ساخر : «اها !» .. بيد أن (أجوستينو) أضاف على عجل ، يأمل أن يحملهم على إبداء مزيد من العطف نحوه : « إن أبى ميت ! » .

وساد الصمت لحظة ، ثم قال (تورتيا) : « إذن فأمك أرملة؟ » .. فانبعثت عدة أصوات ساخرة: « أجل .. بالطبع ! » ..

فقال (تورتيا) محتجاً : « ما أخطأت القول .. فقـد تكون تزوجت ثانية » .

فقال (أجوستينو) : « لا .. لم تتزوج ثانية » .

— وهل لكم سيارة ؟

— أجل ..

— وسائق ؟

— نعم ..

فصاح أحدهم : « قل لأمك إننى على استعداد لأن أكون سائقاً لسيارتها ! » .

وتساءل (تورتيا) — الذى بدا أن حديث (أجوستينو) كان أكثر تأثيراً عليه منـه على الآخـرين : « وماذا تفعلون بغـرفتى الاستقبال ؟.. هل تقيمون حفلات راقصة ؟ » ..

فأجاب أجوستينو : « إن أمى تقيم فيها حفلات استقبال » ..

فعاد (تورتيا) يقول وكأنه يحـدث نفسه : « إنها ولابد تحفل بكثير من الجميلات .. كم من الناس يحضرون تلك الحفلات ؟ » .

– لست أدرى تماماً ..

– كم .. بالتقريب ؟

قال (أجوستينو) وقد اطمأنت نفسه ، بل أحس بنجاحه : « عشرون .. أو ثلاثون » .

– عشرون ، أو ثلاثون .. وماذا يفعلون ؟

فأجابه (برتو) بلهجة لاذعة : « وماذا تتوقعهم أن يفعلوا ؟ .. ما أراهم إلا يرقصون ويلهون .. إنهم أغنياء .. ليسوا مثلنا .. لعلهم يمارسون أساليب الهوى ! » .

فقـال (أجوستينو) فى حرارة ، لكى يثبت لهم أنه يعرف ما يقصدون : « لا .. إنهم لا يمارسون الهوى ! » .

ولاح على (تورتيا) أنه مستغرق فى فكرة لم يستطع أن يصوغها فى قالب واضح .. على أنه ما لبث أن قال : « هب أننى فاجأتك بالظهور فى إحدى هذه الحفلات ، فماذا تراك فاعلا ؟ » .

.. وكان قد نهض خلال الكلام ونقدم فى قحة – ممثلا اقتحامه الحفلة – وقد برز صدره إلى الأمام ، واستقرت يداه فى خاصرته ! .. فانفجر الأولاد مقهقهين ، بينما قال (أجوستينو) وقد أطمعه فى الفتى ضحك الأولاد : « إننى إذ ذاك أطلب إليك الانصراف » .

– وهب أننى رفضت الانصراف ؟

– أوعز إلى رجالنا أن يطردوك !

– هل لديكم خدم من الرجال ؟

– لا ، ولكن أمى تستأجر خدماً ليقدموا الشراب والطعام إذا ما أقامت حفلة !

ويبدو أن والد أحد الغلمان كان يعمل ساقياً ، إذ التفت إليه أحدهم قائلا : « آه .. مثل أبيك ! » .. واستطرد (تورتيا) وهو يتقدم نحو (أجوستينو) منحفزاً ، ملوحاً بقبضتيه فى الهواء كما لو كان يصور له ما يعتزم : « وهب أننى قاومت ، وكسرت أنف ذلك الساقى الذى توصيه بى ، ثم سرت إلى وسط القاعة ، وصحت : « إنكم شلة من الأوغاد والعاهرات .. كلكم سواء » .. فماذا تراك فاعلا ؟ » :

وفى هذه المرة انقلب الأولاد جميعاً يصيحون فى وجه (تورتيا) – لا عن رغبة فى حماية (أجوستينو) ، وإنما شوقاً إلى سماع مزيد من التفصيلات عن ثروته الخيالية : « لسوف يركلونك إلى خارج الدار ، وإنهم ليحسنون صنعاً ! » .

وارتفعت الصيحات من كل جانب .. وهتف (برتو) فى سخرية : « مالك وهذا ؟ .. إن أباك نوتى ، وستغدو أنت الآخر نوتياً .. ولو أنك ذهبت إلى دار بيزا ، لما جرؤت على أن تصيح أو تقول شيئاً .. إننى أعرفك تمام المعرفة » :

.. ثم قفز بمثل ما تصوره من ذلة (تورتيا) لدى باب أجوستينو : « لا مؤاخذة :: هل السيد بيزا فى الدار ؟ .. معذرة ..

لقد جئت .. آه ، لا يستطيع أن يستقبلني ؟.. لا بأس .. أرجو المعذرة .. لشد ما أنا آسف .. سأجيء في وقت آخر » .. أجل ، إني لأكاد أراك في هذا الموقف .. لسوف تنحني حتى يكاد رأسك يمس الأرض ! » .

وانفجر الأولاد كلهم ضاحكين .. ولم يستطع (تورتيا) أن يحتمل سخريتهم ، فقد كان غبياً بقدر ما كان شرساً ! على أنه تحول إلى (أجوستينو) متسائلا ، كي يستعيد اعتباره في أنظار الآخرين ! : « هل تستطيع أن تتغلب علي في لعبة الذراع الحديدية ؟ » .

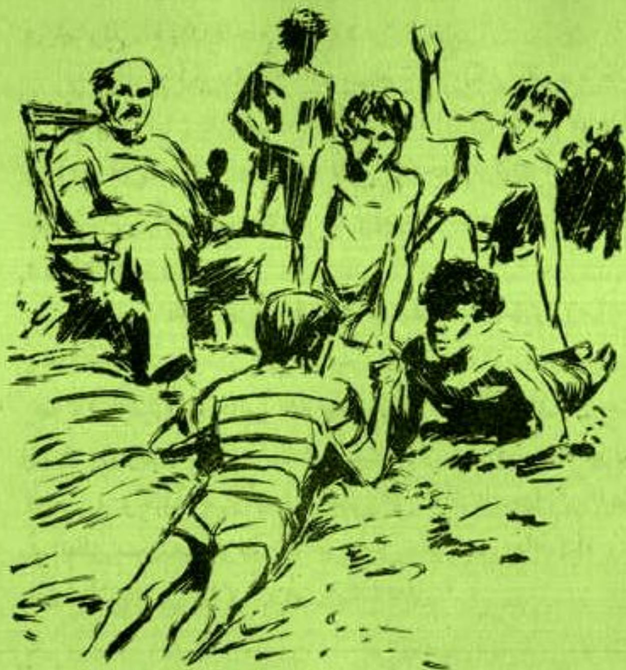
فردد (أجوستينو) قوله في عجب : « الذراع الحديدية ؟ » .. وانبعثت عدة أصوات ساخرة : « إنه لا يعرف الذراع الحديدية ! » .. وأقبل (ساندرو) فأمسك بذراع (أجوستينو) وثناها ، وشرح له كيف يبقى ساعده منتصباً في الهواء ، معتمداً على مرفقه المثبت على الرمل .. وفي تلك الأثناء انبطح (تورتيا) على الرمل ، وأقام ذراعه في وضع مماثل .. في حين استطرد ساندرو يحدث أجوستينو : « .. عليك أن تحاول ثني ذراع (تورتيا) .. بينما يحاول هو أن يثني ذراعك من ناحيته » .

وأمسك (أجوستينو) بيد (تورتيا) ، فإذا بهذا يثني ذراعه بدفعة واحدة، وينهض فائزاً .. وعندئذ قال برتو : « دعني أجرب بدوري » .. وبالسهولة نفسها ، ثني ذراع (أجوستينو) ونهض ..

فتصايح الآخرون كل بدوره : « وأنا كذلك ! .. وأنا أيضاً ! » .. وهزموا (أجوستينو) على التوالي ، واحداً بعد الآخر .. إلى أن حان دور الصبي الزنجي في النهاية ، فقال أحدهم : « إذا غلبك (هومز) ، فلابد أن ذراعك قد صيغت من عجين ! » .. فعقد (أجوستينو) العزم على أن لا يمكن الزنجي من التغلب عليه ..

وكانت ذراعا الزنجي نحيلتين ، في لون البن المحمص ، فخيل لأجوستينو أن ذراعيه أقوى منهما .. وقال (هومز) في تحمس وتحفز ، وهو يستلقي على الأرض أمامه : « هيا يا بيزا » .. وكان صوته واهناً ، كما لو كان صوت امرأة .. وعندما قرب وجهه حتى غدا قاب قوسين من وجه (أجوستينو) ، رأى هذا أن أنفه لم يكن أفطس ، كما توقع ، وإنما كان معقوفاً تقريباً ، وقد طوى على نفسه ، كأنه قبضة من لحم لامع ، وقد علت إحدى فتحتيه شامة ذات لون شاحب يكاد يكون أصفر .. وكان للغلام مقلتان مستديرتان ، في محجرين أبيضين واسعين، تعلوهما جبهة عريضة، ذات شعر كث كأنه الصوف القاتم .. وقال وهو يضع يده الرقيقة ذات الأصابع النحيلة الوردية الأظافر ، في يد أجوستينو : « أقدم يا بيزا .. لن أؤذيك ! »

ورأى (أجوستينو) أنه إذا رفع نفسه قليلا ، برفع كتفه ، تحول ثقل جسمه بسهولة إلى يده ! .. ومكنته هذه الحيلة البسيطة من أن يظل مسيطراً في البداية على (هومز) .. وظلا برهة طويلة



وظلا برهة طويلة يتنافسان دون أن يغلب أحدهما على الآخر ، وقد أحاط بهما الأولاد معجبين ..

يتنافسان دون أن يتغلب أحدهما على الآخر ، وقد أحاط بهما الأولاد معجبين .. وبدا على وجه (أجوستينو) الإجهاد .. كان يركز كل قواه فى الصراع ، بينما كان الزنجى يبتسم ابتسامات رهيبة ، وهو يصر على أسنانه البيضاء ، ويدير عينيه فى محجريهما .. وفجأة ، صاح صوت ملىء بالدهشة : « إن بيزا يوشك أن ينتصر ! » .. بيد أن أجوستينو أحس فى تلك اللحظة بألم حاد مارق سرى من كتفه اليمنى جارياً فى ذراعه ، فلم يعد يحتمل ، واستسلم قائلا : « لا .. إنه أقوى منى » .

وقال الزنجى وهو ينهض ، فى صوت رقيق ، وإن يكن غير بهيج : « لسوف تغلبنى فى المرة التالية » ! .. بينما قال : (تورتيما) فى سخرية لاذعة : « تصور .. حتى (هومز) يغلبك .. إنك لا تصلح لشىء ! » .. بيد أن الأولاد الآخرين كانوا قد سئموا إبداء الزراية بأجوستينو ، فقال أحدهم : « ما رأيكم فى أن نستحم ! » .. فصاحوا جميعاً وقد انطلقوا يثبون ويقفزون على الرمال الساخنة ، نحو البحر : « أجل ، أجل .. لنستحم ! » .. وتبعهم (أجوستينو) عن كثب ، فرآهم يقفزون إلى الماء الضحل ويتقلبون فيه كالسمك ، وهم يصرخون ويصيحون طرباً . وإذ بلغ هو حافة الماء ، برز (تورتيما) منه ، صاعداً بمؤخرته قبل رأسه ــ كأنه حيوان بحرى كبير ــ وصاح : « اغطس يا بيزا .. ماذا تفعل هناك ؟ » .

فقال أجوستينو : « ولكنى أرتدى ثيابى » .. ورد (تورتيا) فى خشونة : « إذن فاخلع ثيابك » .

وحاول (أجوستينو) أن يتملص ، لكن الفرصة فاتته ، إذ كان (تورتيا) قد أمسك به وأخذ يشده إلى البحر ، وهو يقاوم ، ويجذب غريمه معه .. ولم يفلته الفتى إلا حين أوشك أن يخنقه وهو يضغط على رأسه تحت الماء ! .. وإذ ذاك سبح مبتعداً عنه قائلا : « وداعاً يا بيزا ! » .

وعلى مسافة فى عرض البحر ، أبصر أجوستينو (ساندرو) واقفاً فى وضع رشيق على قارب ، فى وسط الأولاد الذين كانوا يحاولون التسلق إلى جانبى القارب . وعاد أجوستينو إلى البر مبتلا ، يلهث ، ووقف لبضع لحظات يرقب الزورق وهو يبتعد موغلا فى البحر ، وحيداً تحت أشعة الشمس التى كان وهجها يبهر البصر .. ثم انطلق يسير على الرمال الناعمة ، على مقربة من حافة الماء ، عائداً إلى (بلاج سيير انزا) ، وهو يحث الخطى !

الفصل الثالث

• لم يكن الوقت متأخراً كما خيل إليه ، إذ لم تكن أمه قد عادت بعد حين وصل إلى (البلاج) .. وكان الشاطىء خالياً إلا من مستحمين قلائل ظلوا ينسكعون فى المياه المتألقة .. أما الغالبية فكانت تسعى تحت شمس الظهيرة فى استرخاء ، وفى صف واحد ، إلى الطريق المرصوفة المفضية من الشاطىء .. ومن ثم جلس (أجوستينو) تحت المظلة الكبيرة ، وانتظر . وخطر له أن أمه قد غابت هذه المرة مدة أطول من المرات السابقة ، ناسياً أن الشاب وصل بقاربه متأخراً عن المعتاد ، وأن أمه لم تكن راغبة فى الانطلاق (وحيدة) مع الشاب ، وإنما هو الذى اضطرها إلى ذلك حين اختبأ عن ناظريها ! .. وجال بنفسه أن الاثنين أفادا من غيابه واستغلاه ليفعلا ما أوحى به (سارو) والأولاد ! .. ولم يعد يستشعر أية غيرة من ذلك ، وإنما سرت فيه رجفة جديدة ، غريبة ، من فضول ، ومن تحبيذ خفى ، كما لو كان هو نفسه شريكاً لها ! .. كان من الطبيعى أن تتصرف أمه مع الشاب مثل هذه التصرفات ، فتخرج معه كل يوم فى القارب ، حتى إذا صارا بمنجى عن الأنظار المتلصصة ، ألقت بنفسها فى أحضانه ! .. كان هذا طبيعياً ، وقد أصبح (أجوستينو) الآن على استعداد تام لتقبل الأمر الواقع !

مرت هذه الخواطر بباله وهو جالس ينعم البصر فى البحر ، فى ارتقاب عودة العاشقين .. وأخيراً ، ظهر القارب ، كشظية لامعة على صفحة اليم . وفيما كان يقترب مسرعاً ، استطاع الفتى أن يتبين أمه جالسة أمام الشاب الذى راح يجذف .. وكانت كل حركة من حركات المجذافين ، وهما يرتفعان ثم يهبطان ، تحدث فى الماء خطاً ناصعاً .. وإذ ذاك نهض أجوستينو فسار إلى حافة الماء ، ليستطيع أن يرى أمه وهى تهبط إلى البر ، فيكشف بعض ما يشى بالألفة التى ساعد هو طويلا على إنمائها دون أن يدرك ، والتى أحس على ضوء ما أبانه له (سارو) والأولاد ، أنها ولابد تفضح نفسها علانية فى تصرفاتهما .. وشرعت أمه تلوح له بيديها والقارب يدنو من البر ، ثم قفزت طروباً إلى الماء ، وسرعان ما كانت إلى جواره ، وهى تقول : « أجائع أنت ؟ .. سنذهب ونتناول شيئاً من الطعام توا .. ». ثم التفتت إلى الشاب وهتفت وهى تلوح له محيية : « مع السلامة ! .. مع السلامة ! .. إلى غد ! » .

وخيل لأجوستينو أنها تلوح أضفى سعادة مما ألف أن يراها . ولم يتمالك وهو يتبعها على رمال الشاطىء أن يحس فى صوتها إذ ودعت الشاب ، رنة من النشوة الجذلانة .. كأنما حدث فى ذلك اليوم فعلا ، ما كان وجود ابنها يحول دونه من قبل ! .. على أن ملاحظاته وهواجسه لم تتجاوز هذا الحد ، ففيما عدا غبطتها السافرة ، التى كانت تناقض بعض الشىء وقارها المألوف ، لم

يستطع (أجوستينو) فى الواقع أن يصور لنفسه ما عسى أن يكون قد جرى وهما بعيدان معاً ، ولا أن يتصور ما صارت إليه حقيقة علاقاتهما .. ومع أنه مضى يتفرس فى وجهها ، ونحرها ، ويديها ، وجسدها ، بإدراك جديد قاس ، إلا أنه لم ير ظاهراً عليها أى أثر للقبلات أو اللمسات التى قد تكون تلقتها .. وأخذ كلما أطال التمعن ، يزداد شعوراً بالخيبة ! .. وحين اقتربا من الكابين ، قال لأمه : « كنتما وحيدين اليوم .. بدونى .. » ، وتمنى لو تقول : « أجل ، واستطعنا أخيراً أن ننعم بتبادل الهوى ! » . بيد أنه لم يبد على أمه أنها فقهت من قوله أكثر من إنه إشارة إلى الصفعة التى بدرت منها ، وإلى فراره بعدها ، فقد قالت وهى تقف وتحيط كتفيه بذراعيها : « لا تثر الحديث مرة أخرى فى هذا الموضوع ! » .. وتأملته بعينيها الضاحكتين ، الطافحتين بالانفعال ، ثم أردفت : « إننى أدرك أنك تحبنى .. ألا قبلنى ولنكف عن إثارة هذا الموضوع ثانية .. ما رأيك ؟ » .

وأحس (أجوستينو) بغتة بشفتيه تلاصقان عنقها .. العنق الذى طالما استعذب ما كان ينبعث منه من عبير العفة وحرارتها ، والذى خيل إليه الآن أنه يحس بشىء جديد يدب فيه تحت شفتيه ، دبيباً واهناً .. كأنه رجفة خلفها رد فعل قبلات الشاب ! .. وما لبثت أمه أن هرعت تصعد سلم الكابين ، بينما استلقى (أجوستينو) على الرمال ، وقد التهب وجهه بعار لم يدر له كنهاً !

وفيما هما فى طريقهما إلى البيت ، عاد يسترجع هذه المشاعر الجديدة الغامضة إلى ذهنه المضنى .. فبعد أن كانت علاقات أمه بالشاب تبدو له كأنها تنضح بشىء من الإثم الغامض ، حين كان جاهلا بالخير والشر ، ألفى نفسه الآن — وقد فتح (سارو) وتلاميذه عينيه — مفعم النفس بشك مبهم ، وفضول مشبوب ! .. إن الذى أثار أحاسيسه فى البداية لم يكن سوى الغيرة الصريحة التى نشأت عن حبه الصبيانى لأمه .. أما الآن ، وفى وضح ضوء النهار القاسى ، فقد حل محل هذا الحب — وإن ظل عارماً — فضول مرير ، لا سبيل إلى التحايل عليه .. فضول بدت تلك الأحاسيس الأولية الواهنة بالنسبة إليه غير مستساغة ولا مرضية .. ففيما مضى ، كانت كل كلمة وكل إشارة مستهجنة تبعث فى نفسه الألم ، دون أن تفتق إدراكه ، فكان يكتفى بأن يتمنى لو أنه لم يسمعها أو يرها .. أما الآن ، وهو يرتد بذاكرته إلى الوراء ، فقد لاحت له هذه البوادر الممجوجة التى كانت تثير فى نفسه الشعور بالعار ، مجرد توافه .: بل إنه غدا يتمنى لو أنه فاجأ أمه فى بعض الأوضاع الفاجرة التى بصره بها (سارو) والأولاد أخيراً .

* * *

● على أنه ما كان لينتهى بمثل هذه السرعة إلى فكرة التجسس على أمه ، سعياً وراء تبديد هالة الوقار والجلال التى ظلت تلفها حتى الآن ، لو أن المصادفة لم تسقه فى ذلك اليوم بالذات ، إلى أن يتخذ

فى هذا الاتجاه خطوة .. فعندما بلغا البيت ، تناولت الأم والابن غداءهما فى صمت لم يكادا يخرجان عنه .. بيد أن (أجوستينو) أحس فجأة بعد الغداء برغبة لا تقاوم فى الخروج واللحاق بعصبة الأولاد ثانية ، إذ كانوا قد أنبأوه بأنهم سيلتقون فى (بلاج فيز بوتشى) بعد الظهر ، ليضعوا الخطط لمغامرات اليوم .. وكان ، بعد أن غالب خوفه الأول واشمئزازه من تلك الشرذمة من الأشقياء الصغار ، قد بدأ يحس بقوة غريبة تجتذبه إليهم !

.. وفيما هو مستلق على سريره ، والمصاريع الخشبية للنوافذ مغلقة ، والحجرة حارة ، مظلمة .. وقد راح يعبث كعادته بالزر الخشبى للضوء الكهربائى .. كانت تتصاعد إليه من الخارج بضعة أصوات : قعقعة عجلات عربة .: وصلصلة الأطباق والأكواب تصدر من النوافذ المفتوحة للنزول — (البنسيون) — المقابل .. وكانت الأصوات المنبعثة فى داخل البيت تبدو — فى سكون أصيل الصيف — واضحة وكأنها فى عزلة عن سواها .. ومن ثم استطاع أن يسمع أمه وهى تلج الغرفة المجاورة ، وكعبا حذاءيها يطرقان بلاط الأرض .. وكانت تمشى جيئة وذهاباً ، تفتح أدراجاً وتقفل أدراجاً ، وتزحزح مقاعد الحجرة ، وتلمس هذا وتدع ذاك ..

وخطر له خاطر مفاجىء ، وهو يطرح عنه الخمول الذى بدأ يزحف على حواسه : « لقد أوشكت أن تنام ، ولن أستطيع إذن أن أخبرها بأننى راغب فى الذهاب إلى الشاطىء ! » .. فقفز فزعاً

من هذا الخاطـر ، وخرج إلى الردهـة . كانت غرفته تطـل على
الشرفة المواجهة للسلم ، وغرفة أمه إلى جوارها .. فسعى إلى بابها ،
وإذا به يجده مواربا .. وبدلا من أن يطرقه كما اعتاد أن يفعل ،
دفعه فى رفق — ولعله كان مدفوعاً برغبة ، لم يكن يعيها ، فى أن
يتجسس على شئون أمه الخاصة !

كانت غرفة أمه تكبر غرفتـه بكثير .. وقـد قام السرير إلى
جوار الباب ، وفى مواجهة الباب تماماً صوان ذو أدراج ، تعلوه
مرآة كبيرة .. وكان أول ما رآه منظر أمه واقفة أمام الصوان ذى
الأدراج . لم تكن عارية كما كان يتصور — بل وكما كان يرجو
وهو يلج الغرفة فى هدوء — وإنما كانت نصف عارية ، وقد همت
بأن تنزع عنها قلادتها وقرطيها أمام المرآة .. وكانت ترتدى قميصاً
حريرياً شفافاً ، لم يصل إلا إلى منتصف عجـزها .. ولـما كانت
تقف فى استرخاء مائلة على أحد جانبيها ، فقد ارتفع أحد ردفيها
فى بروز عن الآخر .. وتحت فخذيـها الممتلئتين فى غير سمنـة ،
انسابت ساقاها الملفوفتان ، البديعتان ، متدرجتين فى الرفع حتى
تنتهيـا إلى كعبين دقيقين . وكانت ذراعاها مرفوعتين لتفكا قفـل
قلادتها :: وخـلال القميص الحـريرى الشفاف ، بدت آثار هذه
الحركة فى كل ظهرها ، وقد أبرزت مفاتن جسدها بدرجة عجيبة ..
ولاح إبطاها — وذراعاها مرفوعتان بهذا الوضع — كأشداق ثعبانين ،
وقد برز منهما الشعر الناعم الطويل ، كألسنة سوداء رفيعة ، سرها

أن أفلتت من ضغط الذراعين الممتلئتين !.. وبدا لعينى (أجوستينو)
المفتونتين كأن جسمها الملتف الرائع يفقد صلابته ويستحيل إلى
جسم إسفنجى منضخم فى ضـوء الغرفة الخافت .. كأنما العرى قد
فعل به ما تفعله الخميرة بالعجين ، فأكسبه قدرة غريبة على التمدد !
وإذا به فى إحدى اللحظات يبدو وكأنه ينتفخ إلى الخارج فى ثنيات
لا حصر لها .. ثم يعود فى لحظة أخرى فيدق ويستطيل حتى يغدو
عملاقاً يملأ الفراغ بين الأرض والسقف !

وكان أول ما خامر (أجوستينو) هو أن يهرع خارجاً مرة
أخرى، بيد أن تلك الفكرة الجديدة التى داخلته : « إنها امرأة ! » ::
تلك الفكرة سمرته فجأة فى مكانه ، وقد اتسعت حدقتاه ، وتشبث
بمقبض الباب .. وأحس بروح البنوة تثور فى نفسه متمردة على
هذا الجمود ، فتحاول أن تجره إلى الخارج .. لكن الوعى الجديد
الذى اشتد فى عقله، وإن ظل حيياً خجولا ، غصب عينيه المتورعتين
على أن تحدقا فى غـير استحياء إلى ما لم يكن ليجـرؤ حتى الأمس
على النظر إليه ! .. وفى خـلال هذا الصراع بين التمرد والميـل ،
وبين الذهول والارتياح ، أخذت خطوط الصورة التى كان يتأملها
تزداد وضوحاً وجـلاء .. حركات ساقيـها ، وانحناءة ظهرها
المتراخيـة ، وشكل إبطيها .. وبدا أنهـا تتمشى تماماً مع فكرته
الجـديدة التى كانت ترتقب هـذه المدعمات كى تستولى تماماً على
خياله !

وفى تحوله السريع من الاحترام والتوقير إلى نقيضيهما تماماً ، ود لو يرى مثالب عريها غير المتعمد ، تتطور أمام عينيه إلى خلاعة متعمدة ! .. وتحولت الدهشة فى عينيه إلى فضول . كان الاهتمام الذى شد عينيه إلى جسدها ، والذى خاله منبعثاً عن رغبة فى المعرفة ، يدين بغايته الزائفة فى الواقع إلى الشعور الذى كان يسيطر عليه .. وبينما كان دمه يتدافع إلى رأسه ، ظل يردد لنفسه : « إنها امرأة ! .. ليست سوى امرأة ! » .. وأحس – بكيفية ما – أن هذه الكلمات سياط تنهال على ظهرها وساقيها بالإهانة والسخط !

وإذ خلعت أمه القلادة ووضعتها على السطح الرخامى للصوان ذى الأدراج ، شرعت بحركات رشيقة من يديها تخلع قرطيها .. ولكى يتسنى لها ذلك ، أمالت رأسها إلى أحد الجانبين ، مشيحة قليلا عن المرآة .. وخشى (أجوستينو) أن تلمحه فى المرآة الكبيرة القائمة فى فراغ نافذة بارزة عن مستوى الجدار على مسافة منها – فإنه كان يرى صورته على صفحة هذه المرآة ، وهو فى موقفه المسترق خلف الباب الموارب – ومن ثم رفع يده فى عناء، وطرق الباب هاتفاً : « هل أدخل ؟ » .

وأجابت أمه فى هدوء : « لحظة واحدة يا حبيبى » .. ورآها تتوارى عن بصره فى ركن الحجرة ، وسمعها تبحث وتنقب لحظة ، ثم ظهرت فى « روب » حريرى أزرق طويل .. فقال (أجوستينو) دون أن يرفع بصره عن الأرض : «ماما .. سأذهب إلى الشاطىء »

.. فأجابته وهى شاردة البال : « الآن ؟.. ولكن القيظ شديد .. ألا يحسن بك أولا أن تنام قليلا؟ » .. وبسطت إحدى يديها فربتت خده ، بينما سوت باليد الأخرى خصلة نافرة من شعرها الأسود الناعم ..

وعاد (أجوستينو) لتوه طفلا من جديد ! .. فلم يقل شيئاً ، بل ظل واقفاً ، كما اعتاد دائماً كلما رفضت أمه له رجاء ، وقد نكس رأسه ، وألصق ذقنه بصدره ، فى عناد أخرس .. وكانت أمه تدرك تماماً معنى هذا الوضع ، فبادرت تستجيب بالطريقة المعهودة : « حسناً ، إذا كنت جد راغب فى الذهاب إلى هذه الدرجة ، فاقصد إلى المطبخ أولا واطلب إليهم أن يعدوا لك شيئاً تأخذه معك .. ولكن لا تأكله الآن ، بل ضعه فى الكابين .. وحذار أن تنزل إلى الماء قبل الساعة الخامسة ، سيما وإننى سأذهب إلى هناك حوالى هذا الوقت ، فنستحم معاً » .. عين التعليمات التى كانت تصدرها إليه دائماً !

لم يحر (أجوستينو) جواباً ، بل هرع حافى القدمين ، وأخذ يهبط السلم الحجرى : وسمع باب غرفة أمه يغلق خلفه فى رفق .. وفى البهو لبس نعليه ، وخرج إلى الطريق .. وما لبث قيظ الظهيرة أن احتواه فى أتونه الصامت .. وعند نهاية الطريق ، بدا البحر الساكن يأتلق عند الأفق البعيد ، المرتعش .. وفى الناحية الأخرى ،

كانت جذوع شجر الصنوبر الحمراء تنحنى تحت ثقل ثمارها الخضراء المليئة ..

وساءل الغلام نفسه : أيذهب إلى (بلاج فيزبوتشى) عن طريق الشاطىء ، أو يذهب عن طريق الغابة ؟ على أنه آثر الطريق الأولى ، فعلى الرغم من أنه سيكون فيها أكثر تعرضاً للشمس ، إلا أنه لن يمر بالبلاج دون أن يراه ويتعرف عليه .. وهكذا ظل يتبع الطريق طوال امتدادها بمحاذاة البحر ، ثم أخذ يغذ السير بأسرع ما استطاع ، محتمياً بالجدران .. كان يجذبه إلى (بلاج فيزبوتشى) — دون أن يفطن ، وبغض النظر عما فى صحبة الأولاد من طرافة — تلك التعليقات الجارحة التى كانوا يتناولون بها أمه وعشيقها المزعوم !.. وأخذ يدرك أن طبعه السابق قد أخذ يتغير إلى شعور آخر مخالف .. شعور أكثر قسوة ، وأكثر وضوحاً وتبلوراً .. وجال بخاطره أن سخرياتهم المقذعة جديرة بأن تكون بغية ينشدها ويستوعبها ، إذ أنها هى التى عجلت بهذا التغيير .. فلقد اشتدت به الرغبة فى أن يكف عن حب أمه .. بل لقد أصبح يكره نفسه لأنه أحبها !.. ولولا سخريات أولئك الأولاد ماجرؤ على أن يصارح نفسه بهذا .. ولعل شعوره بأنها خدعته ، إذ كان يظنها غير ما هى فى الواقع ، أو لعل عجزه عن أن يمضى فى حبها بنفس السذاجة والبراءة اللتين أحبها بهما من قبل ، جعله يؤثر أن يكف عن حبها بالمرة ، وأن ينظر إليها نظرته إلى أية امرأة أخرى ! ..

كان ، بدافع غريزى من أعماق نفسه ، يحاول أن يحرر نفسه تماماً من وطأة حبه القديم ، البرىء ، الذى أحس أنه تعرض للغدر دون استحياء .. والذى أصبح يبدو له مجرد حماقة وجهل !

وهكذا ، كانت الجاذبية القاسية التى سمرت بصره منذ دقائق إلى ظهر أمه ، هى عينها التى أخذت تدفعه الآن إلى أن ينشد صحبة أولئك الأطفال ، على ما فيها من إذلال ووقاحة .. أو ليس من المحتمل أن تساعد تعليقاتهم المزرية — كما ساعد العرى الناقص الذى شاهد أمه فيه منذ دقائق — على القضاء على علاقة البنوة القديمة التى أصبحت بغيضة لديه ؟

* * *

● وإذ غدا (بلاج فيزبوتشى) على مرمى البصر ، خفف من إسراعه فى السير .. ومع أن قلبه كان يدق فى عنف ، شق عليه معه أن يلتقط أنفاسه ، إلا أنه اصطنع الهدوء وعدم الاكتراث !

.. وكان (سارو) فى جلسته السابقة ، بجوار منضدته العرجاء التى استقرت عليها زجاجة نبيذ ممتلئة إلى نصفها ، وقدح ، ووعاء احتوى على بقية من حساء السمك .. أما بقية الجماعة فلم يبد أثر لأى فرد منها . . حتى إذا ازداد أجوستينو اقتراباً ، تكشف طرف الخيمة عن جسد الصبى الزنجى (هومز) مستلقياً على الرمال البيضاء .. ولكن لم يكن (سارو) يبدى أى اكتراث بالزنجى ، بل كان يدخن وهو سارح البال ، وعلى رأسه قبعة عتيقة من القش

حائلة اللون ، مالت حافتها على إحدى عينيه .. وتساءل (أجوستينو) فى استياء إذ وصل : « أليسوا هنا ؟ » .. فتطلع إليه (سارو) وتأمله لحظة ، ثم قال : « لقد ذهبوا إلى (ريو) .. وكانت (ريو) بقعة مهجورة من الشاطئ على بعد بضعة كيلومترات ، يصب عندها فى البحر جدول صغير يجرى بين ضفتين رمليتين نما عليهما الغاب ..

وقال (أجوستينو) فى أسف : « آه ! ذهبوا إلى (ريو) .. لماذا ؟ » .

وتولى الزنجى الإجابة ، فقال وهو يرفع يده إلى فمه معبراً عما يقصه : « ذهبوا إلى وليمة ! » .. على أن (سارو) هز رأسه وقال : « إنكم لن تهنأوا أيها الأولاد ، حتى يطلق بعضهم الرصاص عليكم ! » .. كان من الجلى أن « وليمتهم » لم تكن سوى حملة لسرقة الفاكهة من البساتين ! — أو هكذا بدت لأجوستينو — بينما قال الزنجى فى تزلف ، وكأنه ينشد رضى (سارو) : « إننى لم أذهب معهم » .

فقال (سارو) فى هدوء : « لم تذهب لأنك لم ترغب فيما ذهبوا من أجله ! » .

فتمرغ الزنجى على الرمال محتجاً ، وقال : « لم أذهب لأننى أردت أن أبقى معك » .. وكان يتكلم فى صوت عذب كأنه تغريد .. ولكن (سارو) قال فى ازدراء : « ومن أذن لك فى أن تستبيح

رفقتى إلى هذا الحد أيها الزنجى الصغير ؟.: إننا لسنا أخوين ، على ما أعلم » .

فقال الآخر فى غير ارتباك ، بل فى لهجة الفائز ، وكأنما أتاحت له هذه اللمزة ارتياحاً عميقاً : « لا .. لسنا أخوين » .

قال (سارو) : « إذن ، فالزم حدودك » .. ثم التفت إلى (أجوستينو) قائلا : « لقد ذهبوا ليسرقوا بعض الأذرة .. هذه هى وليمتهم التى سعوا إليها ! » .

فتساءل (أجوستينو) فى لهفة : « وهل سيعودون ؟ » :

ولم ينبس (سارو) ببنت شفة ، بل ظل يتأمل (أجوستينو) وكأنه يتدبر أمراً فى باله ، ثم أجاب فى تؤدة : « لن يعودوا سريعاً .. بل سيطول غيابهم . على أننا نستطيع أن نذهب إليهم إن شئت » .

— وكيف ؟

قال (سارو) : « فى القارب » .

وهتف الزنجى وهو يقفز متحمساً : « آه .. أجل ، لنذهب فى القارب » .. واقترب من (سارو) ، ولكن هذا لم يعره التفاتاً ، بل استطرد يقول لأجوستينو : « إن لدى قارباً شراعياً .. ولن نلبث بعد نصف الساعة أن نكون فى (ريو) .. إذا كانت الرياح مواتية » .. فقال (أجوستينو) مغتبطاً : « أجل .. لنذهب .. ولكن ، كيف نعثر عليهم إذا كانوا فى الحقول ؟ » .

قال (سارو) وهو ينهض ويشد الحزام القماشى الأسود حول بطنه : « لا تحمل لهذا هماً .. سوف نجدهم بسهولة » .. ثم تحول إلى الزنجى الذى كان يرقبه فى قلق ملهوف ، وقال : « هيا أيها الزنجى .. ساعدنى على إقامة الصارى ونشر الشراع » .. فهتف الزنجى فى فرح : « ها أنذا يا سارو .. ها أنذا قادم ! » .. وتبع (سارو) إلى القارب .

* * *

● ووقف (أجوستينو) — إذ غدا وحيداً — وتلفت حوله .. كانت ثمة ريح خفيفة تهب من الشمال الغربى ، وقد اكتسى سطح البحر بمويجات واهنة ، واستحال لونه إلى زرقة بنفسجية تقريباً ؛ أما الشاطىء فقد التف بغلالة من وهج الشمس والرمال ، شملته حتى أقصى مرامى البصر . ولم يكن (أجوستينو) يعرف موقع (ريو) ، فسرح بصره يتبع تعرجات الشاطئ المقفر فى حنين .. ترى أين (ريو) ؟ .. وحدس أنها ولابد تقع فى جزء ما من ذلك الأفق الذى كانت تختلط عنده الأرض بالسماء والبحر فى ضباب قاتم مبهم ، تحت الشمس الحامية .. وأحس بتحمس وشوق إلى الرحلة ، وقد وقر فى نفسه أنه ما كان ليتخلف عنها ولو وهب الدنيا بأسرها ..

وأخرجه من تأملاته صوتا (سارو) والزنجى وهما يبرزان من الكابين ، وقد حمل الأول على إحدى ذراعيه كومة كبيرة من الحبال وقماش الأشرعة ، بينما احتضن بالأخرى زجاجة . وتبعه الثانى يحمل

صارياً طويلا طلى إلى منتصفه باللون الأخضر ، وكأنه يحمل حربة .. وقال (سارو) وهو يتجه إلى الشاطئ ، دون أن يتجشم عناء الالتفات نحو (أجوستينو) : « هيا ، فسوف نقلع » .. وبدا لأجوستينو فى مسلكه تسرع غريب ، يناقض تماماً ما لحظه عليه من قبل .. كما لاحظ أن خياشيمه الحمراء المنتفخة قد ازدادت احمراراً ولمعاناً عما كانت فى العادة ، وكأنما امتلأت جميع ما فيها من عروق متشابكة ، متشعبة ، بفيض طارئ من الدماء .. وأخذ الزنجى يردد وراء (سارو) وهو يقفز على الرمال ، وكأنه يرقص ، والصارى تحت ذراعه : « هيا .. هيا .. » . على أن (سارو) أوشك أن يبلغ الكابينات القليلة التى فى بداية (البلاج) ، فتباطأ الزنجى فى انتظار (أجوستينو) ، حتى إذا اقترب هذا أشار له بأن يقف ، فامتثل (أجوستينو) ، وقال الزنجى فى ألفة وود : « اسمع .. أريد أن أحدث (سارو) فى سر بيننا .. أرجو أن تتكرم .. أرجو .. أن لا تأتى .. اذهب .. أرجوك .. ! » فتساءل (أجوستينو) فى دهشة بالغة : « ولماذا ؟ » .. فقال الآخر فى ضيق ، وهو يدق الأرض بقدمه : « قلت لك إننى أريد أن أتحدث إليه فى خلوة .. أنا وهو فقط ! » .. لكن (أجوستينو) عاد يقول ، دون أن يتزحزح عن موقفه : « يجب أن أذهب إلى ريو » .

— تستطيع أن تذهب فى وقت آخر .

— لا .. لا أستطيع .

فنظر إليه الزنجى وقد نمت عيناه، وخياشيمه المرتعشة، عن انفعال عاطفى مشبوب ، أثار اشمئزاز أجوستينو : « اسمــع يا بيزا .. إذا بقيت هنا ، أعطيتك شيئاً لم تره من قبل ! ». ووضع الصارى على الأرض ، ودس يده فى جيبه ، ثم أخرج مقذافاً – (نبلة) – صنع من فرعين صغيرين مشتبكين من فروع الصنوبر ، وشريطين مطاطين ، وقال وهو يمسك به : « أليس بديعاً ؟ » .

غير أن (أجوستينو) كان راغباً فى الذهاب إلى (ريو) ، كما أن إلحاح الزنجى أثار شكوكه ، فقال : « لا .. لا أريده » .. فعـاد الآخر يتوسل وهو يمسك بيد (أجوستينو) ويحاول أن يدس المقذاف فيها عنوة : « خذه وانصرف ! » .

فردد (أجوستينو) رفضه : « لا .. لا أريده » .

وإذ ذاك استطرد الزنجى وهو يدس يده فى جيبه ثانية : «سأعطيك المقذاف وأوراق اللعب هذه أيضاً » .. وأخرج من جيبه مجموعة من أوراق اللعب الصغيرة ، ذات ظهور وردية اللون ، وحواف مذهبة .. وعاد يقول : «خذها جميعاً وانصرف .. تستطيع أن تصيب بالمقذاف طيوراً .. وأوراق اللعب هذه جديدة » .

لكن (أجوسـتينو) أجابه فى إصرار : « قلت لك إننى لا أريدها ! » .

فرمقه الزنجى بنظرة استعطاف وتوسـل ، وقـد تلألأت على

جبينه قطرات من العرق ، وتقلص وجهه معبراً عن تعاسـة بالغة ، وقال فى شبه عويل : « ولماذا لا تريدها ؟ » .

قال أجوستينو : « هكذا لست أريد » .. وانطلق فجأة يهرع نحو الرجل الذى كان يقف إذ ذاك إلى جوار القارب . وفيما كان يقترب من (سارو) ، سمع الزنجى يصيح وراءه : « ستندم على ذلك ! » .

وكان القارب يستند إلى كتلتين من خشب البلوط غير مصقولتين ، على مسافة من رمال الشاطئ ، وكان (سارو) قد ألقى الشراع فى القارب ، وبدا عليه أنه فقد صبره على الانتظار .. فسأل (أجوستينو) وهو يشير نحو الزنجى : « ما الذى يبغى ؟ » .. فأجابه أجوستينو : « إنه قادم » .

وفعلا أقبل الزنجى يجرى فى قفزات طويلة فوق الرمال ، ممسكاً بالصارى تحت ذراعه .. وتناول (سارو) الصارى بأصابع يمناه الست ، وأقامه بأصابع يسراه الست ، ثم نصبه فى ثغرة تتخلل المقعد الأوسط .. وانتقل بعد ذلك إلى القارب ، فربط الشراع إلى الصارى ، ثم نشر القماش .. وتحول أخيراً إلى الزنجى قائلا : « والآن لندفعه من أسفل » .

ووقف بجانب القارب ، قابضاً على حافة مقدمه ، بينما تأهب الزنجى لدفعه من المؤخرة .. وأخذ (أجوستينو) يرقبهما وهو لا يدرى

ما يفعل .. وكان القارب متوسط الحجم ، نصفه أبيض ، ونصفه أخضر .. وعند المقدمة ، كتب بحروف سوداء اسمه (أمبليا) .

وهتف (سارو) : « هيلا .. ليصا ! » .. فانزلقت المركب إلى الأمام مسافة ، ثم قفز الزنجى ودفع القارب حول محوره ، حتى صارت نهايته فى مكان مقدمته ، وهو محتضن العارضتين الخشبيتين بذراعيه .. وتكررت العملية .. ثم دفعة أخرى ، وإذا بمقدم القارب يغطس فى الماء ، وينزلق طافياً فوق سطح البحر . وقفز إليه (سارو) فوضع المجدافين فى الحلقتين المخصصتين لها ، وما لبث أن قبض على كل منهما بإحدى يديه ، وأشار إلى (أجوستينو) ليقفز — مغفلا الزنجى ، كأنما كان بينهما اتفاق سابق ! — فخاض (أجوستينو) فى الماء حتى ركبتيه ، وأخذ يحاول الصعود ، وما كان ليفلح لولا أن الأصابع الست ليد (سارو) اليمنى أمسكت بإحدى ذراعيه بقوة ، وشدته كما لو كان قطاً ! .. ورفع رأسه ، فإذا (سارو) يرفعه بإحدى ذراعيه دون أن ينظر إليه ، لأنه كان منهمكاً فى تسوية وضع المجداف الأيسر .. وسعى (أجوستينو) حتى جلس فى مؤخرة القارب ، متقززاً إذ أمسكت تلك الأصابع به ، فقال سارو : « حسناً .. ابق هناك . والآن سندفع القارب بعيداً عن الشاطئ » .. فصرخ الزنجى من البر : « انتظرنى .. سآتى أنا الآخر » .. وقفز إلى الماء وقد أرهقه ما قام به من جهد ،

وتشبث بحافة القارب ، ولكن (سارو) قال له : « لا .. لن تأتى » .

فصاح الصبى فى لوعة واستياء : « وماذا ترانى فاعلا ؟ .. ماذا ترانى فاعلا ؟ » .. فأجاب (سارو) وهو يقف فى القارب دافعاً إياه نحو الماء : « استقل الترام فتصل قبلنا .. كن واثقاً من ذلك ! » .. لكن الزنجى استطرد معولا وهو يجرى فى الماء بجانب القارب : « ولماذا يا سارو ؟ .. لماذا يا سارو ؟ .. أريد أن أذهب أنا أيضاً » .

ولم ينبس (سارو) ببنت شفة ، بل ترك المجدافين ، وانحنى على حافة الماء فغطى وجه الزنجى براحته الضخمة ، ثم قال فى هدوء : « قلت لك إنك لن تأتى » .. وبدفعة واحدة رد الزنجى فى الماء ، فعاد هذا يقول فى أنين : « لماذا يا سارو ؟ .. لماذا يا سارو ؟ » .

واختلط صوته الحزين باصطفاق المجدافين وهما يضربان سطح الماء ، الأمر الذى كان له وقع سيئ على (أجوستينو) ، أثار فى نفسه شعوراً من الإشفاق المضطرب ، فتطلع إلى (سارو) الذى ابتسم قائلا : « إنه مزعج .. فما شأننا به ؟ » .

وكان القارب قد ابتعد مسافة ما عن الشاطئ ، وتلفت (أجوستينو) فرأى الزنجى يخرج من الماء .. وخيل إليه أنه يهز له قبضته متوعداً ! .. بينما تناول (سارو) المجدافين فى هدوء فأودعهما القارب ، ثم سعى إلى المقدمة ففك الشراع وشده على الصارى ::

وخفق الشراع مضطرباً لحظة ، كأنما كانت الريح تهب على جانبيه فى آن واحـــد . ثم اهتز فجأة بعنف وانتفخ بالريح ، ومال إلى اليسار .. وانصاع القارب لاتجاهه فلزم هو الآخر الجانب الأيسر ، وشرع يطوى الموج ، يسيره نسيم خفيف .. فقال (سارو) :

— والآن ، نستطيع أن نستلقى ونستريح قليلا ..

واستقر فى قاع القارب ، ودعا (أجوستينو) إلى أن يستلقى إلى جواره ، قائلا : « إذا جلسنا فى القاع ، زادت سرعة انطلاق القارب » .. فأطاع (أجوستينو) واستلقى بجواره ، ومضى القارب مسرعاً رغم ثقل بنيانه ، يعلو ويهبط مع الأمواج ، ومؤخرته ترتفع أحياناً ، كدجاجة صغيرة تحاول أن تلتقط شيئاً من الأرض للمرة الأولى .. وكان (سارو) مستلقياً ورأسه مستند إلى المقعد ، وإحدى ذراعيه خلف عنق (أجوستينو) تمسك بالدفة .. وبعد أن ظل برهة لا ينبس ببنت شفة ، قال : « أتذهب إلى المدرسة ؟ » .

وتطلع (أجوستينو) ، فإذا (سارو) نصف راقد ، وقد لاح كأنه يعرض خياشيمه الواسعة الملتهبة لهواء البحر ، كى يبردها .. وكان فمه نصف فاغر تحت شاربيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وقد كشف قميصه المفتوح الصدر عن شعر قذر ، مشعث ، اختلط البياض فى لونه بالسواد ..

فأجابه (أجوستينو) وقد أخذ يرتجف فرقاً : « أجل » .

— وفى أية سنة دراسية أنت ؟

— فى السنة الثالثة ..

فقال له (سارو) : « هات يدك ! » .. وقبل أن يرفض (أجوستينو) ، أمسك بها .. كانت قبضته تبدو لأجوستينو إثماً . وكانت الأصابع الست القصيرة الغليظة قد أحاطت بيده كلها والتقت تحت راحتها . وقال (سارو) وهو يتزحزح فى اضطجاعته ليتخذ وضعاً أكثر إراحة ، ويغرق فى استغراقة منتشية : « وماذا يعلمونك فى المدرسة ؟ » .

فأجاب أجوستينو متلعثماً : « اللاتينيـــة .. والإيطاليـــة .. والجغرافيا .. والتاريخ .. » .

فسأله (سارو) بصوت خفيض : « هل يلقنونكم الشعر .. الشعر البديع ؟ » ..

فأجاب أجوستينو : « نعم .. هم يلقنوننا الشعر أيضاً » .

— قل لى بعضاً مما تحفظ ..

وانحرف القارب ، فحول (سارو) الدفة ، دون أن يغير من وضعه الذى ارتاح له .. وقال (أجوستينو) وهو يزداد شعوراً بالحيرة والخوف : « لست أدرى .. إننى أحفظ كثيراً من الشعر .. قصائد كاردوتشى .. » .

فأجاب (سارو) بلهجة آلية : « آه ، أجل .. كاردوتشى .. قل لى قصيدة من كاردوتشى » .

فقال (أجوستينو) متسائلا ، وهو فى ذعر من اليد التى لا تبغى

أن تفلته ، رغم محاولته أن يتملص منها شيئاً فشيئاً : « تبغى قصيدة « نافورات كليتونو ؟ » .. فأجاب (سارو) فى لهجة حالمة : « أجل .. نافورات كليتونو ! » .

فشرع (أجوستينو) يردد فى صوت مرتجف : « أشبه بالجبال المرمرية العالية ، منها بالأشجار الهيفاء الداكنة فى مهب الريح » ؟

... وازدادت سرعة القارب ، وظل (سارو) راقداً فى اضطجاعته المريحة ، مغمض العينين ، رافعاً أنفه فى مهب الريح .. وراح يهز رأسه إلى فوق وإلى تحت وكأنه يستمرئ الأبيات التى تتلى عليه .. وتشبث (أجوستينو) بالشعر وقد رأى فيه الوسيلة الوحيدة التى تتيح له مهرباً من الحديث الذى أحس بغريزته أنه خطر ، غير مأمون ، فواصل ترديد الشعر فى إلقاء بطىء ، واضح .. وظل طيلة الوقت يسعى لتخليص يده من تلك الأصابع الست التى كانت تأسرها ، لكنها كانت تزداد إطباقاً عليها أكثر من قبل ! وتبين فى جزع أن القصيدة أوشكت أن تنتهى ، فلما أعياه التماس الحيلة ، ألحق بآخر سطر من القصيدة ، السطر الأول من قصيدة « أمام القديس جيدو » .. وهنا تجلى الدليل — إذا كان قد أعوزه الدليل — على أن (سارو) لم يكن مهتماً بالشعر ، وإنما كان يبغى أمراً آخر جد مختلف .. أما ما هو ذاك الأمر ، فهذا ما لم يستطع (أجوستينو) أن يدركه ! .. ونجحت التجربة ، وانتقل (أجوستينو) إلى القصيدة الثانية ، دون أن تبدر من (سارو) أتفه

إشارة إلى أنه لاحظ التغير الذى حدث .. وما لبث (أجوستينو) أن كف عن الإلقاء ، وقال فى صوت مغيظ : « دع يدى .. أرجوك » وحاول فى الوقت ذاته أن يجذب يده بعيداً ..

وانتبه (سارو) ، ففتح عينيه وتحول ينظر إليه ، دون أن يفلت يده .. ولعله قرأ على وجه (أجوستينو) من النفور العنيف ، والفزع الظاهر ، ما جعله يتحقق من أن خطته — إذ كانت له بالتأكيد خطة — قد منيت بفشل ذريع .. فأخذ يرفع إصبعاً بعد أخرى — فى تؤدة — عن يد (أجوستينو) التى كانت تنضح بالألم ، وقال بصوت خفيض ، وكأنه يحدث نفسه : « ما الذى تخافه ؟ .. ها قد آن أن نهبط إلى الشاطئ » .. وجر نفسه حتى استوى على قدميه ، فجذب الدفة وأدارها ، وإذ ذاك ولى القارب مقدمه صوب الشاطئ ..

* * *

● ونهض (أجوستينو) من قاع القارب وهو لا يزال يفرك يده المتقلصة العضلات ، دون أن يتفوه بكلمة ، ثم انتقل ليجلس فى المقدمة .. ولم يكن بين القارب والشاطئ إذ ذاك مسافة تذكر ، فاستطاع أن يرى البر .. تلك الرقعة البيضاء من الرمال التى لوحتها الشمس ، والتى كانت متسعة عند المقدمة ، ومن خلفها تجلت خضرة أشجار الصنوبر السامقة ، الكثيفة — إذ كانت (ريو) تقع

فى ثغرة بين الكثبان العاليـة ، يتوجهـا غاب ذو لـون أزرق مخضوضر — على أن (أجوستينو) أبصر ، قبل أن يبلغا (ريو) ، جمـاعة من الناس على الشاطئ ، وقد انبعث من وسطهم خيط طويل من الدخان الأسود .. فالتفت إلى (سارو) ، الذى كان جالساً فى المؤخرة ، مسيطراً على الدفة بيد واحدة ، وتساءل : « هل سنهبط هنا ؟ » .

فأجاب (سارو) فى غير اكتراث : « أجل ، فهذه ريو » .

وازداد القارب دنواً من الشاطئ ، فرأى (أجوستينو) الجماعة الملتفة حول النار تتفرق فجأة وتتسابق جرياً إلى حافة الماء .. وتبين لتوه أنهم صحابه الغلمان ، ورآهم يلوحون بأيديهم ، ولعلهم كانوا يصيحون ، بيد أن الريح حملت أصواتهم بعيداً .. فتساءل فى انفعال : « أهم هؤلاء ؟ » .

قال سارو : « أجل .. هم ! » .

وازداد القارب دنواً حتى أصبح فى وسع (أجوستينو) أن يميز الأولاد .. كانوا جميعاً هناك : « تورتيا ، وبرتو ، وساندرو ، وجميع الآخرين » . وكان الزنجى « هومز » هناك ، يقفز على طول الشاطئ ، ويصيح مع الآخرين .. وداخل (أجوستينو) ، إذ رآه هناك ، شىء من المضض لم يدر مبعثه !

* * *

● واندفع القارب بمقدمه إلى الشاطئ ، ولكن (سارو) حوله بلفة سريعة للدفة ، فاتخذ اتجاهاً عرضياً ، ثم ألقى بنفسه على الشراع فأمسك به بكلتا يديه ، وخفضه إلى السطح .. فدار القارب حول نفسه ثم سكن فى الماء الضحل ، وإذ ذاك تناول (سارو) من قاعه خطافاً للرسو ، ألقى به إلى البحر ، وقال : « هيا بنا إلى الشاطئ » .. ثم تسلق حافة القارب ، وخاض فى المـاء ، ليسعى إلى الأولاد الذين كانوا على الشاطئ فى الانتظار .

ورأى (أجوستينو) الأولاد يلتفون حول (سارو) ، وبدا له أنهم يهنئونه لأمر استقبله بهزة من رأسـه . فلما حان دوره فى الاقتراب ، استقبله الأولاد بتصفيق أشد ، فخيل إليه لحظة أنهم كانوا يرحبون به فى ود ، بيـد أن ضحكاتهم كانت ساخرة ، لاذعة .. وصاح (برتو) : « إن (بيزا) العزيز يستعذب النزهة فى البحر ! » ، بينما وضـع (تورتيا) أصابعه فى فـمه ، وأرسل صفيراً مستهجناً ، فقلده الآخرون .. حتى (ساندرو) الذى كان متحفظاً فى العادة ، رمق أجوستينو فى ازدراء .. أما الزنجى ، فلم يفعل سوى أن راح يقفز حول (ساندرو) الذى يمر لفوره شطر النار التى كان الأولاد قد أشعلوها على رمال الشاطئ .. وسـار (أجوستينو) مذهولا ، يخالجه خوف مبهم ، إلى حيث جلس بين الآخرين حول النار ::

وكان الأولاد قد أقاموا ما يشبه الفرن ، من الرمال الرطبة المضغوطة ، أشعلوا بداخله ناراً اتخذوا لها من أكواز الصنوبر وإبره وفروعه وقوداً .. وعند فتحة الفرن ، كانت ثمة كومة من أكواز الأذرة ، تشوى ببطء . كما كانت ثمة فاكهة كثيرة وبطيخ على على ورق من أوراق الصحف ، بالقرب من النار ..

وقال (برتو) حين جلسوا جميعاً : « إنه ظريف .. صديقنا (بيزا) ! .. إنك و (هومز) ندان متشابهان ، فخليق بكما أن تجلسا معاً .. إنكما أخوان .. هو أسود ، وأنت أبيض .. هذا كل ما بينكما من فارق .. وكلا كما يحب النزهات فى القارب ! » .

وضحك الزنجى معجباً ، بينما انحنى (سارو) يقلب أكواز الأذرة أمام النار .. وأخذ الآخرون يضحكون فى استهزاء . وتمادى (برتو) فدفع (أجوستينو) دفعة طوحت به على (هومز) ، فتماس ظهراهما لحظة ، وأحدهما يضحك فى غير ارتياح ، والثانى حائر ، ممتعض .. وقال (أجوستينو) فجأة : « لست أفقه ماذا تعنون ! .. لقد قمت بنزهة فى القارب ، فأى ضير فى هذا ؟ » .

فردد كثيرون فى أصوات ساخرة : (آه .. حقاً ، أى ضير فى هذا ؟ .. قام بنزهة فى القارب .. أى ضير فى هذا ؟ ») :

وأمسك بعضهم جنوبهم من فرط استغراقهم فى الضحك ، وعاد (برتو) يلتفت إلى أجوستينو مكرراً : « أجل ، أى ضير ؟ .. لا ضير على الإطلاق ! .. بل إن (هومز) يراها نزهة رائعة ..



واندفع القارب بتقدمه إلى الشاطئ ، ولكن (سارو) حوله بلفة سريعة للدفة ، فاتخذ اتجاهاً عرضياً ، ثم ألقى بنفسه على الشراع ..

أليس كذلك يا هومز ؟ » .. فهز الزنجي رأسه موافقاً وقد بدا عليه
الانشراح .. وإذ ذاك بدأت الحقيقة تنبثق في ذهن (أجوستينو)
وئيداً ، فلم يتمالك أن رجح وجود علاقة بين لمزاتهم وبين مسلك
(سارو) في القارب ، فقال : « لست أدري ما الذي ترمون إليه ،
فإنني لم آت خطأ في القارب : لقد حملني (سارو) على أن ألقي عليه
بعض الشعر .. وهذا كل ما جرى ! » .

... فسمع أصواتهم تنبعث من كل جانب : « آه .. آه ،
من تلك الأشعار ! » .. فصاح (أجوستينو) وقد تضرج وجهه :
« أليس ما أقول حقاً يا سارو ؟ » .. لكن (سارو) لم يجب بنعم
أو لا ، بل قنع بالابتسام ، وهو يرقبه طيلة الوقت في فضول
غريب ! .. وفسر الأولاد مابدا عليه من عدم اكتراث مصطنع ،
بأنه ليس في الواقع سوى ستار لإخفاء غدره وغروره إزاء
أكذوبة (أجوستينو) ، فصاحوا معاً : (آه .. طبعاً ! .. إنه
يسأل الحمار ما إذا كانت خره طيبة ، ولن يجسر الحمار على أن
يجيب بالنفي ! .. أليس كذلك يا سارو ؟ .. آه ، حيلة لطيفة ..
واهاً لك يا بيزا .. يا بيزا ! » .. ووجد الزنجي في هذا ثأراً يرضي
كرامته ، فأحس باغتباط .. وفجأة تحول (أجوستينو) إليه وهو
يرتعش لفرط الحنق وقال : « ما الذي يضحكك ؟ » .

فأجاب وهو يتراجع : « لست أضحك » .. وتدخل (برنو)

قائلا : « ما ينبغي لكما أن تتشاحنا .. لسوف يسعى (سارو) كي
يعيد الود بينكما » .

* * *

● على أن الأولاد ما لبثوا أن فقدوا اهتمامهم بالموضوع — إذ
انتهى إلى غير شجار — فأخذوا يتحدثون في مسائل أخرى ،
ويصفون كيف تسللوا إلى حقل سرقوا منه الأذرة والفاكهة ،
وكيف رأوا المزارع يندفع نحوهم ساخطاً ، ممسكاً ببندقيته ،
فلاذوا جميعاً بالفرار ، بينما أطلق المزارع عليهم بضع طلقات من
بارود (الرش) دون أن يصيب منهم أحداً .. وفي تلك الأثناء
كانت أكواز الأذرة قد نضجت على الجمر وغدت شهية الشكل ،
فأخرجها (سارو) من الفرن وأخذ يوزعها عليهم بطريقته الأبوية
المألوفة : وانتهز (أجوستينو) فرصة انهماكهم في أكل الأذرة
فقفز إلى (ساندرو) الذي كان يجلس على حدة يتناول نصيبه
حبة حبة ، وشرع يقول له : « لست أفهم .. » ، ولكن هذا
رمقه بنظرة جعلته يوقن من أن لا داعي للكلام ! .. ثم قال
(ساندرو) في تؤدة : « لقد جاء الزنجي مستقلا (الترام) ، وقال
إنك و (سارو) خرجتما للنزهة في القارب » .

— ولكن .. أي ضير في هذا ؟

فأجاب (ساندرو) وقد غض بصره : « لا شأن لي في هذا »

إنه شأنك وشأن الزنجى . أما (سارو) .. » وأمسك عن الكلام ، ونظر إلى (أجوستينو) ، فسأله هذا : « أكمل ! » .

— الواقع إننى لا أجرؤ على الخروج وحيداً مع (سارو) !

— ولكن .. لماذا ؟

فتلفت (ساندرو) حوله فى حذر ، ثم أخذ يفضى فى صوت خفيض ، بالشرح الذى كان (أجوستينو) قد حدسه ، وإن لم يستطع أن يبرره ، بل لم يزد على أن قال : « آه » .. ثم عجز عن أن يضيف شيئاً ، فعاد إلى مكانه بين الآخرين .. وكان (سارو) يجلس وسط الأولاد ، ورأسه الرصين الملامح ، الطيب السمات ، مائل إلى أحد الجانبين ، فبدا تماماً كالأب محوطاً بأبنائه ! .. بيد أن (أجوستينو) أحس — إذ أبصره — بكراهية نحوه فاقت ما كان يكنه للزنجى . وكان مما زاد (أجوستينو) بغضاً له ذلك الصمت الذى التزمه حين استنجد به ، وكأنه كان يبغى الإيحاء للأولاد بأن ما اتهموه به قد حدث فعلا ! .. بل إن (أجوستينو) لم يتمالك أن يلاحظ — إلى جانب هذا — أن احتقارهم وسخريتهم قد حفرا بينه وبينهم هوة واسعة .. عين الهوة التى فطن الآن إلى أنها كانت تفصل بينهم وبين الزنجى ! .. كل ما هنالك من فارق ، هو أن الزنجى بدلا من أن يستشعر مثله هواناً وألماً ، بدا وكأنه يستمرىء الوضع : ولقد حاول أجوستينو أكثر من مرة أن يدير دفة الحديث نحو الموضوع الذى كان يضنى باله ، ولكنه كان يقابل دائماً

بضحك وازورار مهين ! .. ثم إنه فوق ذلك ظل لا يفهم تماماً ما حدث ، رغم شرح (ساندرو) الذى كان واضحاً كل الوضوح ، ولاح له أن ظلاماً يكتنف كل شىء حوله ، ويمتد فى أغوار نفسه ، وكأنما لم تكن نحيط به غير أشباح ، وأشكال غامضة مخيفة ، بدلا من الشاطىء والبحر والسماء ..

وكان الأولاد فى تلك الأثناء قد فرغوا من التهام الأذرة وطوحوا بالأكواز العارية على الرمال ، فهتف أحدهم : « هيا نسبح فى مياه ريو » . وقوبل الاقتراح بموافقة إجماعية فى الحال ، وذهب (سارو) معهم — إذ كانوا قد اتفقوا على أن يحملهم فى القارب عند العودة إلى (بلاج فيز بوتشى) — وفيما كانوا يسيرون على الرمال ، تخلف (ساندرو) عن الآخرين ، وسعى إلى (أجوستينو) فقال له : « إذا كان الزنجى قد أساء إليك ، فلم لا تعلمه كيف يخافك ويحسب لك حساباً ؟ » .

فتساءل (أجوستينو) فى استخذاء : « وكيف ؟ » .

— أذقه « علقة » طيبة .

قال (أجوستينو) وهو يذكر تنافسهما فى مباراة الذراع : « ولكنه أقوى منى .. اللهم إلا إذا عاونتنى » .

— ولماذا أعاونك ؟ .. إن المسألة تخصك .. وتخصه !

وتعمد أن ينطق الكلمات الأخيرة بلهجة أوحت بأنه كان من رأى الآخرين فيما يتعلق بسبب عداء (أجوستينو) للزنجى .. ودهم

فـؤاد (أجوستينو) شعور لاذع فظيـع المرارة : إذن فقـد كان (ساندرو) — الوحيـد الذى أبدى له شيئاً من العطف — يؤمن بتلك الفرية ، هو الآخر !

وابتعد (ساندرو) بعد أن أزجى إليه تلك النصيحة ، وانضم إلى الآخرين — وكأنه خشى أن يرى مع (أجوستينو) ! — فدلفوا من الساحل إلى غابة نبتت فيها أشجار صنوبر حديثة العهد ، ثم عبروا درباً رملياً ، وولجوا منابت الغاب .. وكانت أعواد الغاب سميكة ، طويلة ، تتوج كثيراً منها شعيرات بيضاء .. وأخذ الأولاد يظهرون ويختفون وهم يمرقون بين الأعواد الخضراء الطويلة ، متخيرين مواطىء أقدامهم على الأرض اللزجة ، منحين عن طريقهم الأوراق السميكة الوبرية ، التى كانت تحدث حفيفاً خشناً .. وانتهوا أخيراً إلى بقعة انفسح فيها الفراغ بين أعواد الغاب ، وبدت ضفة منخفضة ، موحلة .. وتدافعت عند مرآهم ضفادع كبيرة راحت تقفز من كل اتجاه على سطح الماء المعتم ، الراكد : وإذ ذاك شرعوا جميعاً يخلعون ثيابهم ، كل أمام الآخر ، تحت بصر (سارو) الذى جلس فى كامل ثيابه على صخرة تطل على الحمأة ، وبدا مستغرقاً فى تدخين سيجاره ، لكنه كان فى الواقع يرمقهم طيلة الوقت من خلال أجفانه المسدلة .. وخجل (أجوستينو) من أن ينضم إليهم ، بيد أنه خشى أن يسخروا منه ، فلم يلبث أن شرع

بدوره بفك أزرار سرواله ، متباطئاً فى ذلك ما استطاع ، ومثبتاً بصره على الآخرين فى حيطة ..

* * *

● وكأنما اشتد بالآخرين الفرح للتخلص من ثيابهم ، فأخذ كل منهم يرتطم بالآخر وهو يصيح فى سرور ! .. كانوا يلوحون ناصعى البياض وسط أعواد الغاب الخضراء ، تشوب بياضهم قتامة كالحة فيما بين الفخذين والبطن ، أضفت على مظهرهم لوناً من الخشونة المستهجنة ، كتلك التى تظهر عادة على العمال الذين يشتغلون بأيديهم . وكان (ساندرو) الرشيق ، المتناسق الأعضاء ، ذو الشعر الأصفر النامى على جسمه — والذى كان يضاهى فى اللون شعر رأسه — هو الوحيد الذى لايكاد يبدو عارياً .. ولعل ذلك كان راجعاً إلى أن السمرة كانت موزعة على جسمه كله توزيعاً منسقاً .. وكيفما كان الأمر ، فإن عريه بدا مختلفاً عن ذلك العرى المثير للنفور ، والذى يشاهد فى الحمامات العامة !

وأخذ الأولاد يمارسون كل أنواع اللعب البذيئة قبل أن يغوصوا فى الماء ، فى قحة أذهلت (أجوستينو) ، الذى كان كل ذلك جديداً عليه ! .. وكان هو الآخر عارياً ، وقد اسودت ساقاه بالوحل البارد القذر ، لكنه كان يود لو يلوذ بأعواد الغاب ليختفى بينها ، ولو ليفر من نظرات (سارو) الذى كان يجلس محدودب الظهر ، جامداً — كما لو كان إحدى تلك الضفادع الضخمة التى

تسكن المستنقع – يرمقه خلال عينين نصف مغمضتين !.. بيد أن
نفور أجوستينو كان ، كالمعتاد ، أقل من تلك الجاذبية الغريبة التى
كانت تشده إلى العصبة ! .. بل لقد كان الشعوران ممتزجين إلى
حد لا يمكن معه الفصل بينهما ، ويستحيل عليه عنده أن يميز بين
استبشاعه لما يجرى ، واستطابته المسرة التى كانت وراء الاستبشاع .
وأخذ كل من الأولاد يعرض جسمه بدوره ، مزهواً برجولته
وقوته البدنية . وكان (تورتيما) أكثرهم غروراً ، لكنه كان رغم
قوته الفائقة ، أكثرهم سماجة ، وأقذرهم مظهراً : ومع ذلك فقد
أوحى إليه الغرور بأن يصيح فى أجوستينو : « هب أننى ظهرت
أمام أمك عارياً – هكذا – ذات صباح بديع ، فماذا تراها قائلة ؟..
أتراها ترافقنى ؟ » .

فقال أجوستينو : « لا » .. ومع ذلك فقد أردف تورتيما :
« بل أؤكد لك أنها ستسعى إلى فى الحال ، ولسوف ترمقنى بنظرة
شاملة ، لتستبين مدى صلاحيتى ، ثم تقول : « هيا يا تورتيما ..
تعال نخرج للنزهة » ! .. وكان هذا القول من السخف بحيث حملهم
جميعاً على الضحك .. ثم ما لبثوا أن تواثبوا تباعاً إلى الماء مثل
الضفادع التى أزعجوها بمقدمهم . وكان الشاطىء محاطاً بالغاب
تماماً ، بحيث لا يلوح للبصر من النهر سوى جزء قصير .. لكنهم
ما أن أصبحوا فى عرض المجرى ، حتى رأوا النهر بأكمله ، وقد

انسابت مياهه الداكنة السريعة بحركة لا يلاحقها البصر ، نحو المصب
البعيد الذى كان يتوسط الضفتين الرمليتين .

وكان النهر فى الناحية الأخرى يمضى بين خطين من أحراش
فضية تلقى ظلالا بهيجة على صفحة الماء ، إلى أن يصل المرء إلى
جسر حديدى صغير ، تتكاثف خلفه عيدان الغاب وأشجار
الصنوبر والسرو ، إلى درجة تسد الطريق . وكان ثمة بيت أحمر
يتوارى بين الأشجار ، كأنه الحارس على الجسر !

وأحس (أجوستينو) بالهناءة لحظة ، وهو يسبح فى ذلك الماء
البارد القوى الجريان ، الذى خال أنه يكاد يحمل ساقيه معه ،
فنسى كل ما كان يضايقه من إساءات ولمزات . وأخذ الأولاد
يسبحون فى كل اتجاه ، ورؤوسهم وسواعدهم تعلو على السطح
الأخضر الرقيق ، وأصواتهم تتردد فى الجو الرطب الراكد الهواء ..
وكانت أجسامهم تبدو ، خلال الماء الشفاف ، كما لو كانت
سيقاناً بيضاء لنباتات تنمو فى الأعماق ، والتيار يعبث بها فيحركها
فى هذا الاتجاه وذاك .. وسبح (أجوستينو) حتى بلغ (برتو)
الذى لم يكن بعيداً عنه ، وسأله : « هل فى هذا النهر أسماك
كثيرة ؟ » .

فتأمله (برتو) وقال : « ما الذى تفعله هنا ؟ .. لم لم تبق
لتؤنس سارو ؟ » .. فأجاب (أجوستينو) وقد عاوده الشعور
بالشقاء : « إننى أحب السباحة » .. ثم استدار وتولى سابحاً ..

بيد أنه لم يكن سباحاً قوياً ، مدرباً كالآخرين ، فسرعان ما أدركه التعب ، وترك التيار يحمله نحو مصب النهر .. وما لبث أن خلف الأولاد وضجيجهم وراءه ، وأخذ سياج الغاب يبهت رويداً ، وبدأ يرى خلال الماء الصافى ، العديم اللون ، رمال القاع ، والماء يدور حولها فى دوامات صغيرة مستمرة .. وانتهى أخيراً إلى بركة داكنة الخضرة ، كأنها عين المجرى الرقراقة ، فلما اجتازها مست قدماه الرمال ، وبعد أن كافح هنيهة قوة التيار ، صعد إلى الضفة .. كان الجدول عند انسيابه إلى البحر يلتف حول نفسه ، مكوناً ما يشبه عقدة من الماء ، ثم يفقد كيانه وينتشر كالمروحة ، ويفقد عمقه رويداً حتى يغدو كقناع خفيف سائل على وجه الرمال الناعمة . وكان البحر يندفع إلى النهر فى مويجات مزبدة : وكانت ثمة برك صغيرة فى الرمال المغرقة بالماء ، نسيها التيار ، وانعكست عليها السماء المشرقة ..

* * *

● وأخذ (أجوستينو) يتجول عارياً على الرمال الناعمة اللامعة برهة ، مستمتعاً بأن يطأها بقدميه فيجعل الماء يرتفع إلى السطح ويغرق مواطئ القدمين .. وتولته رغبة قوية ، لم يدر مبعثها ، فى أن يجتاز النهر خوضاً ، وأن ينطلق فى السير على الشاطئ ، مخلفاً الأولاد و (سارو) ، وأمه ، وكل حياته القديمة وراءه .. فمن يدرى ، لعله لو سار قدماً إلى الأمام ، لوصل فى النهاية إلى بلد

لا وجود فيه لتلك الأشياء الفظيعة .. بلد يجد فيه من الترحيب ما يصبو إليه ، ويتاح له فيه أن ينسى كل الأشياء التى تعلمها ، ثم يعود إلى تعلمها من جديد خالية من العار والتقزز ، منطوية على اللطف والتدرج الطبيعى كما كان ينبغى ، فيما بدا له !

وأنعم البصر فى الأفق المعتم ، البعيد ، الذى يمتد إلى أقصى حدود البحر والشاطئ والغابة ، وأحس بأنه مشدود إلى ذلك الاتساع المترامى ، وكأنه منجذب إلى شىء يحرره من قيوده ! .. ولكن مالبثت صيحات الأولاد — وهم يتسابقون على الشاطئ — أن أيقظته من تخيلاته الحزينة . وكان أحدهم يلوح بثيابه فى الهواء ، بينما كان (برتو) ينادى : « بيزا .. إننا منصرفون ! » .. فجمع شتات نفسه ، وسار على حافة الماء ليلحق بالجماعة .

وأخذ الأولاد يتجمعون فى الماء الضحل ، و (سارو) ينذرهم بلهجة أبوية بأن القارب أصغر من أن يضمهم جميعاً ، بيد أنه كان من الواضح أنه لم يكن يقصد سوى مداعبتهم .. إذ لم يلبث الأولاد أن ارتموا على القارب كالمجانين ، متصايحين .. وأمسكت عشرون قبضة بجوانب القارب ، وفى مثل لمح البصر كان قد امتلأ بالأجسام المتزاحمة .. واستلقى بعضهم فى القاع ، بينما جلس بعضهم متلاصقين فى المؤخرة حول الدفة ، وبعضهم فى المقدمة ، وآخرون على المقاعد ، وغيرهم على حواف القارب تاركين أقدامهم مدلاة فى

الماء . وتبين بالفعل أن القارب أصغر من أن يتسع لمثل هذا العدد ، إذ لم يلبث الماء أن بلغ حوافه !

وقال (سارو) فى بشاشة ضافية : « نحن جميعاً هنا .. ألسنا كذلك ؟ » . ثم وقف ونشر الشراع ، فانطلق القارب مسرعاً فى البحر ، والأولاد يحيون رحيله بصيحاتهم . ولكن (أجوستينو) لم يشاطرهم مرحهم ، بل كان يترقب فرصة سانحة ليثبت براءته ويمحو عن نفسه تلك الوصمة الظالمة التى أكربته ! وانتهز فرصة انهماك الأولاد فى نقاش عنيف ، فقفز إلى جوار الزنجى —(هومز)— الذى كان يجلس بمعزل ، ولوى ذراعه فى قسوة وسأله : « ما الذى ذهبت فأشعته عنى ؟ » .

وكان من سوء الطالع أنه اختار تلك اللحظة ، ولكنها كانت أول فرصة سنحت له ليقترب من الزنجى الذى كان حريصاً على أن يظل بعيداً عنه حين كانا على الشاطئ .. وأجاب (هومز) دون أن ينظر إليه : « إنى قد قلت الحق » .

— وما هو هذا الحق ؟

ووجف إذ أجابه الزنجى : « لا خير فى أن تلوى ذراعى بهذا الشكل .. أنا لم أقل غير الصدق . لكنك إذا ظللت توغر (سارو) ضدى ، فسأفضى إلى أمك بكل شىء .. لذلك يحسن بك أن تكون على حذر يا بيزا » !

فصاح (أجوستينو) وكأنه رأى هـوة عميقـة ، تنفغر تحت قدميه : « ماذا ؟.. ماذا تعنى ؟.. أمعتوه أنت ؟.. أنا .. أنا .. » ، وتلعثم ، وعجز عن أن يقرن بالكلام تلك الصـورة التى رسمها خياله فجأة . على أنه لم يجد فرصة للمضى ، فقد تصاعدت صيحات السخرية من جنبات القارب : وقال (برتو) ضاحكاً : « انظروا إليهما معاً .. تأملوهما ! .. ما أتعس حظنا إذ لم نحضر آلة تصوير لنلتقط صورتهما معاً » !

واسـتدار (أجوستينو) وقد تضرج وجهـه ، فرآهم جميعاً يضحكون .. حتى (سارو) بدت تحت شاربيه ابتسامة ، وهو يدخن سيجاره ، نصف مغمض العينين .. ونأى (أجوستينو) عن الزنجى — وكأنه يبتعد عن أفعى ! — وجلس محتضناً ركبتيه بذراعيه ، مرسلا بصره إلى البحر ، وقد اغرورقت عيناه !

* * *

● وكانت الشمس عند الأفق آخذة فى المغيب ، تحيط بها سحب نارية ، على حافة بحر بنفسجى ، مطلقة أسهماً من أشعة بللورية مدببـة الأطراف . وارتفعت الريح ، فتباطأ القارب ، وقد مال على أحد جانبيـه تحت ثقـل حمولتـه من الركاب . وكانت مقدمته تشق البحر ، وكأنها موجهة نحو أشباح الجزر المعتمة ، البعيدة ، التى كانت تلوح خلال الغسق كأنها جبال تحف بهضبة نائية ! .. وأمسك (سارو) البطيخة التى سرقها الأولاد بين ركبتيه ، فشقها

بسكينة ، وقطعها ، ثم راح يوزع أجزاءها على الأولاد بروح أبوية ، فانقضوا عليها فى نهم ، ينهشون اللحم ويلفظون البذور .. ثم أخذت القشور التى جردوها من لحمها تطير إلى البحر واحدة إثر أخرى ..

وحان — بعد البطيخة — دور زجاجة النبيذ التى أخرجها (سارو) فى هدوء ، فدارت على الموجودين فى القارب . واضطر (أجوستينو) بدوره إلى أن يتناول منها جرعة — وكان النبيذ دافئاً، قوياً ، فصعد تواً إلى رأسه ! — حتى إذا عادت الزجاجة فارغة إلى مكانها ، أخذ (تورتيا) يغنى أغنية بذيئة ، فانضموا إليه جميعاً فى وقاحته . وكانوا بين كل أغنية وأخرى يحملون (أجوستينو) على أن يغنى هو الآخر ، إذ لاحظوا جميعاً ما كان عليه من كآبة .. لكنهم بدلا من أن يخففوا عنه ، راحوا يغيظونه وهم يحملونه على الغناء ! وكان هو يحس فى أعماقه هماً ثقيلا ، لم يزده البحر بنسماته، والشمس الغاربة بلهبها الجميل ، سوى مرارة وقسوة ! .. وبدا له أن من الظلم البشع أن يجرى قارب كقاربهم ، على بحر مثل ذلك البحر ، وتحت سماء كتلك السماء ، محملا بالشر الخبيث ، والقسوة ، والزيف ، والفساد ! .. لقد كان القارب المكتظ بالأولاد — وهم يتمازحون فى قحة كالقرود الماجنة ، وقد جلس بينهم (سارو) السمين ، مغتبطاً — يبدو صورة بشعة ، كئيبة ، وسط هذا الجمال كله ! .. حتى لقد كان الفتى يتمنى فى بعض الأويقات لو يغرق

القارب ، بل كان يؤثر أن يموت هو الآخر ، حتى لا تصيبه عدوى هذا الدنس وأوشابه ! .. ألا ما أطول المدة التى خال أنها انقضت منذ الصباح ، حين قدر له أن يرى للمرة الأولى تلك المظلة الحمراء على (بلاج فيزبوتشى) ؟ ! .. لكأنما كان الصباح يمت إلى عصر فات وانقضى !

وكان القارب كلما ارتفع على موجة عالية ، صرخ الغلمان ، فتسرى فى بدنه قشعريرة .. وكلما تحدث إليه الزنجى فى لهجته المنفرة ، وفى صغار العبيد وريائهم ، حاول أن لا يصغى إليه ، وتزحزح ممعناً فى البعد عنه ! كان يحس — فى غير وضوح — بأنه انتقل فى ذلك اليوم المشئوم إلى عهد حافل بالصعاب والتعاسات ، لم ير لنفسه منه مهرباً ! .. وما أن مس القارب الشاطىء ، حتى هرع (أجوستينو) منه دون أن يودع أحداً .. لكنه لم يلبث أن خفف من سرعته قبل أن يمضى بعيداً ، والتفت خلفه فرأى الأولاد يساعدون (سارو) على جذب القارب إلى الشاطىء .. وكان الظلام قد هبط رويداً رويداً على الفضاء .

الفصل الرابع

● كان ذلك اليوم بداية عهد معتم، مضطرب، بالنسبة لأجوستينو. ففي ذلك اليوم فتحت عيناه قسراً، فإذا الذى تعلمه أكثر مما يتسع له ذهنه .. كان عبئاً فوق ما يستطيع أن يحمل ! .. ولم تكن طرافة الأشياء التى تعلمها، وجدتها، هى التى أضنته وسممته، وإنما كان الذى أضناه وسممه : نوعها ! .. كانت أفظع وأبشع من أن يهضمها ويستوعبها .. فلقد خطر له — على سبيل المثال — أن علاقاته بأمه لن تلبث — بعد الأمور التى تكشفت له فى ذلك اليوم — أن تصفو وتتضح، وأن عدم الارتياح، والامتعاض، بل الاشمئزاز، وغير ذلك من المشاعر التى أيقظها حنانها فى نفسه، لن تلبث — بعد الشرح الذى أزجاه له (سارو) — أن تتلاشى وتهدأ، وتستحيل بسحر ساحر إلى إدراك مستكين ..

بيد أن الأمر لم يتم على هذا النحو، إذ بقى عدم الارتياح، والامتعاض، والاشمئزاز، مسيطرة على نفسه، غير أن هذه الأحاسيس كلها .. كانت فى البداية منبعثة عن الصدمة المحيرة التى أصابت حبه البنوى نتيجة لإدراكه المبهم لأنوثة أمه .. فإذا بهذه المشاعر تصبح — بعد ذلك الصباح الذى قضاه فى خيمة (سارو) — منبعثة عن شعور مرير من الفضول الآثم، لا قبل له باحتماله، من فرط ما كان يسيطر عليه من احترام تقليدى لأمه !.. وبعد

أن حاول فى البداية أن يتحلل من تلك العاطفة — دون أن يفطن — لائذاً بنوع من الكراهية الظالمة، أصبح الآن يرى من واجبه أن يفصل المعلومات التى اكتسبها أخيراً، عن الشعور برابطة الدم التى تربطه إلى شخص لم يعد يود أن يعتبره أكثر من .. امرأة !

أجل، أصبح يحس أنه لو استطاع أن لا يرى فى أمه أكثر مما كان يرى (سارو) والأولاد : مجرد امرأة حسناء ! .. فإن كل شئونه لن تلبث إذ ذاك أن تتبدد .. ومن ثم أخذ يسعى، بكل ما أوتى من جهد، وراء المناسبات التى لم تثبته على عقيدته هذه : غير أن النتيجة الوحيدة لسعيه تمثلت فى أن توقيره وحبه السابقين تحولا إلى قسوة وحساسية مرهفة !

وفيما كانت هذه «المعركة» تدور فى نفسه، كانت أمه — فى البيت — لا تخفى عنه من نفسها أكثر مما اعتادت أن تستر من قبل، ولذلك لم تحس بأى تغير فى مسلكه نحوها ! .. لم تكن، وهى أمه، لتشعر باستحياء منه . أما هو، فصار يراها مثيرة للاشتهاء ! .. كان يسمعها تناديه، فى بعض الأحيان، فيذهب إلى غرفتها ليجدها أمام مائدة الزينة، فى قميص شفاف يكشف عن نصف ثدييها .. أو ربما استيقظ من نومه فرآها منحنية عليه تطبع قبلة الصباح على جبينه، وقد انفرج شقا ثوب المخدع فسمحا له بأن يرى بجلاء شكل جسمها خلال قميص النوم الشفاف، المنخفض .. ولقد تروح وتغدو أمامه — وكأنه غير موجود — ترتدى جوربيها أو تخلعهما..

أو تلبس ثيابها وتتعطر .. أو تأخذ زينتها .. وما إلى ذلك من أعمال كان (أجوستينو) – من قبل – يراها طبيعية ، فأصبحت تبدو له الآن مظاهر أو علامات واضحة لحقيقة أكثر شمولا وأخطر شأناً !.. ومن ثم أصبح ذهنه موزعاً بين الفضول والألم . وظل يقول لنفسه متكلفاً استخفاف الخبير العارف : « إنها ليست سوى امرأة ! » .. بيد أنه كان لا يلبث فى اللحظة التالية أن يشعر بالعجز عن احتمال ما كانت تبديه ، كأم ، من عدم الكلفة والتحفظ .. أو ما كان يجد نفسه مسوقاً إليه من تأمل ومراقبة لحركاتها ، فيود لو يصرخ فيها : «استرى جسمك .. اخرجى ولا تدعينى أراك ثانية ؛ فإننى لم أعد كما كنت من قبل ! » .

* * *

• على أن أمله فى أن لا يعتبر أمه أكثر من امرأة ، سرعان ما تصدع .. إذ لم يلبث أن تبين أنها وإن صارت بالنسبة إليه امرأة، إلا أنها ظلت فى نظره – رغم ذلك – أمه ! .. وتبين أن الشعور القاسى بالعار ، الذى انبعث فى البداية عن مشاعره الجديدة ، لن يفارقه بعد اليوم !.. تبين أنها ستظل دائماً – بالنسبة له – المرأة التى أحبها ذلك الحب المطلق الطاهر .. ستظل دوماً تمزج بحركاتها الأنثوية ، مظاهر الحنان الخالص التى لم يكن يعرف طيلة عمره سواها .. أبداً لن يستطيع أن يفرق بين رأيه الجديد فيها ، وبين الذكريات الجريحة الخاصة بما كان لها من وقار وتبجيل فى نفسه !

.. لم يداخله الشك لحظة فى أن علاقتها بالشاب كانت بالفعل كما صورها الأولاد فى خيمة (سارو) !.. وأخذ يعجب فى نفسه من التطور الذى أصابه : فهو فى البداية لم يشعر بغير الغيرة على أمه ، والنفور من الشاب ! – وكان الشعوران على السواء ، مستخفيين ، وغير واضحى المعالم – بيد أنه ، فى جهاده ليحدد مشاعره ويهدئ من نفسه ، أصبح يرجو لو أنه أحس بالعطف على الشاب ، وبعدم الاكتراث لأمه ! .. لكن ذلك العطف بدا له نوعاً من التواطؤ ، كما بدا له عدم الاكتراث نوعاً من التهور والطيش !

* * *

• وأصبح لا يخرج معهما للنزهة فى القارب إلا نادراً ، إذ غدا يحرص عادة على أن يتفادى كل فرصة لأن يدعواه لصحبتهما . على أنه كان كلما ذهب معهما ، يدرس فى انتباه حركات الشاب وكلماته ، كأنما يود لو أنه تخطى حدود آداب المجتمع .. وكان يرقب أمه ، وكأنه يأمل أن يبدر عنها ما يؤكد وساوسه ! وكانت هذه المشاعر – فى الوقت ذاته – تنطوى على إرهاق لا يحتمله ، لأنها كانت على العكس تماماً مما كان يجب أن يشعر به .. ولأنه كان يود أن يشعر مرة أخرى بالرثاء الذى أثاره مسلك أمه النزق ذات يوم فى نفسه .. فقد كان الرثاء أقرب إلى

العواطف الإنسانية من هـذا التربص وهذه المراقبة ، المجردين من الإشفاق .

* * *

● وأسلمته هـذه الأيام الحافلة بالصراع النفسى ، إلى شعور مضطرب بالدنس .. أحس أنه لم يستبدل بطهره وسذاجته القديمين ما كان يرجوه من طمأنينة الرجولة ، وإنما استبدل بهما حالة كئيبة ، قلقة ، لم يجد فيها من الميزات ما يعوضه عما فيها من عناء ، بل كان يقابل فيها معميات جديدة تحيره إلى جانب الطلاسم القديمة !.. فما جدوى أن تتضح له الأمور ، إذا كان هـذا الوضوح لا يجلب عليه سوى ظلال أشـد قتامة من سابقتها ؟ .. وكان يسائل نفسه أحياناً : « أكان من يكبرونه سـناً من الصبية يبقون على حبهم لأمهاتهم ، إذا ما علموا عنهن ما علمه عن أمه ؟ وكيف ؟ » .. وخرج من تساؤله إلى أن هـذا العلم ولابد كفيل بأن يقضى فوراً على عاطفة البنوة فى نفوسهم !.. بيد أن هـذا لم يحدث عنده ، وإنما قام العلم إلى جانب البنوة معاً فى ارتباط بغيض !

وكما يحدث فى بعض الأحيان ، أصبح مسرح هذه المكتشفات ، وذلك الصراع — وهو بيته — سجناً لا يطاق ! ففى خارج البيت ، كان البحر ، والشمس ، وجموع السابحين ، ومواكب النساء ، تشغل كلها باله ، وتفـل من إرهاف أحاسيسه . أما بين جدران داره الأربعة ، ومع أمه — وحدهما — فقد كان يشعر بأنه معرض

لـكل لون من ألوان الوساوس ، وبأنه موزع بين شتى أنواع التناقض !.. كانت أمه على (البلاج) امرأة كبقية النساء الكثيرات اللاتى يستمتعن بحمامات الشمس .. أما فى البيت ، فكانت تبـدو قاهرة ، فذة ! وكما يبـدو الممثلون على مسرح صغير ، أكبر من أحجامهم الطبيعية ، كانت كل بادرة أو كلمة من أمه تبدو واضحة بشكل غير عادى .. ولقد كانت ثمة روابط عاطفية وخيالية حيـة تربط (أجوستينو) إلى كل الأشياء المألوفة فى البيت .. كان منذ حداثته يرى لكل ردهة ، ولكل ركن أو حجرة ، شخصية غريبة لا يستطيع تحديدها تماماً .. كانت جميعها أماكن تستطيع أن توفق فيها إلى أغرب المكتشفات ، وأن تعيش فى أكثر المغامرات إغراقاً فى الخيال ، أما الآن ، وبعـد أن التقى بأولئك الصبية فى الخيمة الحمراء ، فقد أصبحت تلك المكتشفات والمغامرات من نوع جديد ، ومن ثم لم يعد يدرى هل يزداد استغراقاً فيها ، أو فزعاً منها ؟!.. لقـد اعتاد فيما مضى أن يتصور فى قطع الأثاث وفى الجدران مكامن ، وأشباحاً ، وأرواحاً ، وأصواتاً .. أما الآن ، فإن خياله — الذى ازداد نشاطاً عما كان عليه فى طفولته الغريرة — اتجه إلى الحقائق الجديدة التى خيل إليـه أن الجدران ، وقطع الأثاث ، بل جو البيت كله ، زاخراً بهـا . وبدلا من الانفعالات البريئة التى كانت تفثأها قبلة أمه على خده — قبيل النوم — والنعاس الخال من

الأحلام .. بات الغلام يتعذب فى لهب فضولى معيب كان يزداد جبروتاً فى الليل ، وكأنه كان يجد فى الظلام وقوداً لناره المدنسة !

كان يلوح لأجوستينو أنه يلمح فى كل مكان من البيت آثار وجود امرأة .. المرأة الوحيدة التى عرفها وألفها .. وكانت هذه المرأة هى أمه ! كان يحس وهو معها — وبطريقة ما — كما لو كان قد غدا حارساً يرقبها .. فإذا اقترب من بابها أحس بأنه يتجسس عليها .. وإذا لمس ثيابها ، أحس كأنه يلمسها هى ، لأن الثياب تضم جسدها .. وكان يحلم ليلا وهو مفتوح العينين ، وتراوده أضغاث تعذبه .. فيتصور نفسه أحياناً وقد ارتد طفلا ، يخاف كل صوت ، ويخشى كل خيال ، فيقفز من سريره يعدو ، كيما يلوذ بحمى فراش أمه ! .. ولكن ، ما أن تمس قدماه الأرض ، حتى يتبين — رغم خدر النعاس الجاثم على حواسه ، ورغم تشتت خواطره — أن خوفه لم يكن سوى قناع يستر ، فى إحكام ، فضوله .. وأنه لو ارتمى بين أحضان أمه فلن تلبث أوهامه الليلية أن تكشف للتو عن غرضها الحقيقى !

وكان يستيقظ أحياناً على حين غرة ، فيسائل نفسه عما إذا كان من المحتمل أن يكون الشاب صاحب القارب — فى تلك اللحظة بالذات — فى غرفة أمه التى لا يفصلها عن غرفته سوى جدار رقيق !.. وكان يخال أنه يسمع أصواتاً تؤكد ريبه، وأخرى تنقضها، فينقلب فى فراشه برهة متململا ، ثم لا يلبث فى النهاية أن يجد نفسه

فى الردهة — دون أن يدرك كيف بلغها — وقد وقف فى ثياب النوم عند باب مخدع أمه — يتسمع ويتجسس ! .. وذات مرة ، لم يقو على مقاومة الإغراء الذى كان يوسوس إليه بدخول الغرفة دون استئذان ، فاقتحمها ووقف فى وسطها جامداً ، تحت ضوء القمر الباهت المنساب خلال النافذة المفتوحة ، وقد علقت عيناه بالسرير ، حيث استطاع أن يتبين شعر أمه الأسود منثوراً على الوسادة ، وأطرافها المديدة ، الملفوفة ، الرقيقة ، مستكنة على الفراش ..

وسألته أمه إذ استيقظت : «أهذا أنت يا أجوستينو ؟» .. فاستدار وهرع إلى غرفته دون أن يتفوه بكلمة ما !

* * *

● وكان عزوفه عن البقاء وحيداً مع أمه يدفعه إلى الإكثار من التردد على (بلاج فيزبوتشى) : لكنه كان يجد هناك أيضاً — فى ارتقابه — ألواناً من الضنى جعلت المكان بغيضاً إلى نفسه ، كالبيت تماماً ! .. ذلك أن مسلك الأولاد نحوه ، منذ خرج وحيداً مع (سارو) فى القارب ، لم يتغير البتة .. بل إنه اتخذ فى الواقع شكلا نهائياً واضح المعالم ، وكأنه قام على يقين ثابت ! .. فقد كان من المستحيل عليهم إقصاء هذه الفكرة عن عقولهم مادام الغلام قد قبل تلك الدعوة وذلك الإيثار المشئومين من (سارو) ! ومن ثم ، فإلى جانب الغيرة والكراهية اللذين استشعرهما الغلمان نحو (أجوستينو) منذ البداية ،

لثرائه ، قام سبب آخر حفزهم على ازدرائه : ذلك هو فجوره الذى توهموه !.. وبدا لعقولهم الموبوءة أن كلا من السببين يبرر الآخر ، وأن كلا منهما ينبعث عن الآخر ! بل لاح من معاملتهم المهينة ، القاسية ، أنهم يعتقدون أنه ما دام الصبى غنياً ، فمن الطبيعى أن يكون خليعاً ، فاسداً !.. ولم يحتج (أجوستينو) إلى طويل وقت كى يتبين العلاقة الخبيثة بين هذين الاتهامين ، فتولاه شعور غامض بأنهم كانوا يثأرون منه لأنه يختلف عنهم ، بل أرقى منهم !.. فقد كان الفارق الاجتماعى بينه وبينهم ، وارتفاع مستواه عنهم ، يتجليان فى ثيابه ، وفى حديثه عن الترف الذى يتوفر فى داره ، وفى ميوله وتأدبه فى الحديث . ولقد حفزه اختلافه الخلقى وسموه عنهم ، على أن ينكر ما اتهم به من أنه على أية علاقة بسارو ، فضلا عما كان يبدو عليه من تقزز من أخلاق الصبية وعاداتهم ، ومن ثم فقد انتهى ، بدافع المذلة التى ألفى نفسه فيها ، ودون ما اختيار حر من تلقاء نفسه ، إلى أن يقرر أن يصبح كما بدا أنهم يريدونه أن يكون : أن يصبح .. مثلهم !

وهكذا شرع يرتدى أقدم ثيابه وأقذرها ، الأمر الذى أثار دهشة بالغة فى نفس أمه — وكانت قد بدأت تلاحظ أنه لم يعد يعتز بمظهره ! — كما صار يحرص على أن يتجنب ذكر ما يحيطه من رفاهية فى بيته .. وراض نفسه على أن يشعر بمتعة ومسرة من وراء أساليب وعادات كانت حتى ذاك اليوم تثير اشمئزازه ! بل إنه

توسل يوماً بكل ما لديه من جهد ليهيء أعصابه للإقدام على ما هو أنكى من ذلك كله ، فبينما كان الصبية يسلقونه يومئذ بنكاتهم المعتادة ساخرين ، متغامزين عن خروجه فى القارب وحيداً مع (سارو) ، اندفع هو قائلا إنه قد سئم الإنكار ، وأن ما اتهموه به قد حدث فعلا !.. وأنه لا يحفل بما إذا كانوا يعرفون أو لا يعرفون !.. وبهت (سارو) لهذا الإقرار الكاذب ، ولكنه لم ينكره ! — ولعله خشى أن يفضح فشله ! — واشتد الذهول فى البداية بالأولاد ، إذ سمعوا (أجوستينو) يعترف بحقيقة التخرصات التى تراءى لهم من قبل أن مجرد الإشارة إليه كان يعذبه — فقد كان شديد الخجل والحياء ، وما خطر لهم قط أن له مثل هذه الجرأة ! — بيد أنهم مالبثوا أن انهالوا عليه بالأسئلة عن حقيقة ما حدث ، وإذ ذاك فقد ما فرض على نفسه من اصطناع ، فاحمر وجهه ، ورفض أن ينبس بكلمة ما ! وكان من الطبيعى أن يؤول الأولاد صمته وفق هواهم ، فعزوه إلى الشعور بالعار ، وليس إلى جهله وعجزه عن الاختلاق !.. ومن ثم ازدادت سخريتهم ولمزاتهم قسوة عن ذى قبل ..!

* * *

● على أن الغلام كان قد تغير بالفعل ، فإن مجرد إنفاقه وقتاً طويلا مع الأولاد فى كل يوم ، لم يلبث أن انتهى به — دون أن يفطن ، بل دون أن يحاول — إلى أن يصبح شديد الشبه بهم ، فقد

ذوقه وميوله القـديمة ، دون أن يكتسب ميولا جديدة فى الواقع .
وكم من مرة استبد به الاشمئزاز من (بلاج فيزبونشى) والثورة عليه ،
فكان ينضم إلى صبية (بلاج سبيرانزا) ، يشاركهم ألعابهم البريئة ،
ويتقرب إلى من اتخذهم أنداداً فى أوائل الصيف . ولكن ، لشد
ماكان هؤلاء الصبية ذوو النشأة الحسنة يبعثون فى نفسه من ملل
وسأم .. وماكان أضيقه بهدوئهم وتورعهم أمام أهلهم ومربياتهم ..
وما أتفه ما أصبحت تبدو له أحاديثهم عن المدرسة ،وعن مجموعات
طوابع البريد ، وعن الكتب والمغامرات الساذجة ، وما إليها ..
ذلك لأن العصبة الأخرى ، وأحاديث صبيتها عن النساء ، وعن
حملات السرقة من البساتين ، بل وأعمالم المنطوية على البطش
والعنف ، والتى كان هو نفسه من ضحاياها ، قد بدلته تبديلا لم
يعد يستطيب معه صحبة أصدقاءه القدامى !

وما لبث أن حدث ما جعله يشعر بهذا التطور ويزداد انسياقاً
له . ففى ذات صباح ، وصل متأخراً إلى (بلاج فيزبونشى) ، فلم
يجد أحداً ، إذ كان (سارو) قد رحل لأمر خاص به ، ولم يظهر
فى المكان أحد من الصبية . ومن ثم سار الغلام فى اكتئاب إلى
الشاطئ ، واتخذ لنفسه مجلساً على أحد القوارب . وفيما كان يرسل
بصره على طول الساحل ، أملا فى أن يرى (سارو) مقبلا ، وقع
بصره فجأة على رجل ومعه صبى يصغره هو بنحو عامين . وكان
الرجل قلة فى الجسم ، ذا ساقين سمينتين ، قصيرتين ـ قامتا تحت

بطن متكرش ـ ووجه مستدير ، وأنف مدبب تعلوه (نظارة)
بدون إطار ، وكان له مظهر الموظف الحكومى، أو العالم .. أما الصبى
فكان نحيلا شاحباً ، يرتدى ثياباً مهدلة تكبره حجماً ، وقد احتضن
كرة جلدية كبيرة كان مظهرها ينم عن الجدة .

وسار الرجل إلى (أجوستينو) ممسكاً ابنه بيده ، وتأمله برهة
فى تردد ، ثم سأله أخيراً عما إذا كان من الميسور أن يجذف بهما
فى البحر للنزهة ، فأجاب (أجوستينو) دون تردد : « بالطبع ! »..
وإذ ذاك حدق فيه الرجل من فوق حافتى عدستيه ، فى ارتياب ،
ثم سـأله عما يطلب كأجر للنزهة مدة ساعة فى قاربه . وكان
(أجوستينو) قد ألم بفئات الأجـر التى كان يتقاضاها الغلمان ،
فأنبأه . وعندئذ فقط فطن إلى أن الرجل ظنه ، خطأ ، ابن حارس
الشاطئ ، أو أحد الصبية التابعين له .. فأحس أجوستينو بشىء من
الغبطة لذلك ، فى حين قال الرجل : « حسن جداً .. سنركب معك ».

ولم ينتظـر (أجوستينو) أن يكرر الرجل قـوله ، بل بادر
فتناول كتلة خشنة من خشب الصنوبر تستعمل كرافعة ينزلق عليها
القارب إلى الماء ، ودسها تحت مقـدم القارب ، ثم أمسك حافتى
عوامتيه بكلتا يديه ، وقد منحته المناسبة اعتزازاً بنفسه ضاعف من
قوته ، فدفع القارب إلى الماء ، ثم ساعد الصبى وأباه على أن ينتقلا
إليه ، وقفز خلفهما ، فأمسك بالمجذافين وشرع يجذف برهة دون
أن يتكلم : وكان البحر فى تلك الساعة المبكرة خالياً تماماً ، وأخـذ

الراكب الصبى يضم الكرة إلى صدره وهو لا يحول عينيه الباهتتى اللون عن (أجوستينو) . أما أبوه فقد جلس مستكيناً ، وقد فرق بين ركبتيه ليفسح مكاناً لكرشه ، وأخذ يدير عنقه السمين متلفتاً حـــوله ، ومظهره ينم عن استمتاع بالنزهة .. وأخـــيراً ، ســأل (أجوستينو) عمن يكون ، وهل هو ابن حارس الشاطىء ، أو أنه أجير لديه .. ثم تساءل : « وكم عمرك ؟ » .

فأجاب أجوستينو : « ثلاث عشرة سنة » .

فالتفت الرجل إلى ابنه قائلا : « انظر ، إن هذا الصبى يكاد يكون فى مثل سنك ، ومع ذلك فهو يشتغل ليكسب » ! .. ثم قال لأجوستينو : « وهل تذهب إلى المدرسة ؟ » .. فأجاب الغلام وهو يصطنع لهجة النفاق التى سمع الأولاد يتخذونها حين يسألون مثل هـــذا السؤال : « كان بودى .. ولكن ، كيف يتسنى لى ذلك ياسيدى ؟ .. إننا مضطرون للعمل كى نعيش ياسيدى » !

فقال الأب لابنه : « هل سمعت ؟ .. إن هذا الصبى لايستطيع الذهاب إلى المدرسة لأنه مضطر للعمل ، فهل لك بعد هذا وجه كى تشكو من دروسك وتتذمر ؟ » .. فقال (أجوستينو) وهو يجدف بقوة : « إن أسرتنا كثيرة العيال ، وكلنا نشتغل » .. فسأله الرجل : « وكم تكسب فى اليوم ؟ » ؛

أجاب (أجوستينو) : « هذا يتوقف على الظروف . فعندما يكثر الوافدون ، يصل كسبى إلى نحو عشرين أو ثلاثين ليرة » ..

فأردف الرجل : « وطبعاً تسلمها جميعاً لأبيك » .. ورد (أجوستينو) دون ماتردد : « بالطبع .. فيما عدا ما أناله من عطاء كبقشيش ! » .

ولم يشأ الرجل فى هذه المرة أن يضرب به المثل لابنه ، بل هز رأسه فى تقدير . أما ابنه ، فلم يقل شيئاً ، بل ضم الكرة إلى صدره أكثر من ذى قبل ، وظل مثبتاً عينيه الشاحبتين ، الدامعتين ، على (أجوستينو) .. وعلى حين غرة سأل الرجل أجوستينو : « هل تحب أن تكون لك كرة من جلد كهذه يا فتى ؟ » .

وكانت لأجوستينو كرتان جميلتـــان ، أهملهما فى غرفته مـــع غيرهما من اللعب منـــذ أمد طـــويل .. لكنه مع ذلك قال : « إننى أتمنى بالطبع ، ولكن أنى لى بواحدة ؟ .. إننا مضطرون لأن نبتاع الحاجيات الضرورية أولا » !

فالتفت الرجل إلى ابنه قائلا : « اسمع يا بيتر .. ألا أعط كرتك لهذا الولد الذى لا يملك كرة ما » .. ولعله صدر فى قوله هـــذا عن شىء من الدعابة ، لكن الولد تطلع إلى أبيـــه ، ثم إلى (أجوستينو) ، وما لبث أن ضم كرته فى حرص الشحيح ، دون أن ينبس ببنت شفة . فسأله أبوه فى رفق : « أو لا تريد ؟ » فقال الصبى : « إنهـــا كرتى » .. فعاد الأب يلـــح عليه : « أجل ، إنهـــا كرتك : لكنك لو شئت نزلت عنها ، فهذا الولد المسكين لم يتح له مثلها طيلة حياته .. أفلا تحب بعد هذا أن تمنحه إياها ؟ » .

فأجاب ابنـه فى إصرار : « لا » .. وعنـد ذلك ، تدخـل (أجوستينو) قائلا فى ابتسامة المتسامح القانع : « لابأس .. إننى فى الحق لا أريدها ، فما أرى لدى وقتاً لألعب بها .. بخلافه هو » .

وابتسم الأب لهـذه الكلمات ، وقد سره أن وجد مثـل هذا الدرس النافع لابنه ، ثم قال وهو يمسح رأس ولده : « إنه خير منك .. فهو على فقره لا يريد أن يأخذ كرتك ، وإنما هو يتركها لك .. على أننى أرجو أن تذكر — كلما شئت أن تتذمر وتشكو — أن فى العالم أولاداً كثيرين على شاكلة هذا الصبى ، يضطرون إلى العمل ، ولا يحظون قط بكرات أو ألعاب يسعدون بها ! » .

فرد الصبى فى عناد : « إنها كرتى » .. وتنهد الرجل وهو شارد الذهن ، وقال : « أجل ، إنها كرتك » .. ثم تأمل ساعته ، وقال آمراً : « لقد حان وقت العودة ، فارجع بنا يا غلام » :

ووجه (أجوستينو) مقدم القارب نحو الشاطىء دون أن يفوه بكلمة .. حتى إذا أشرفوا على البر ، لمح (سارو) يقف فى الماء يرقب حركاته فى انتباه ، فخشى أن يفضحه ! بيد أن (سارو) لم يقل شيئاً — ولعله أدرك ما حـدث ، أو لعله لم يكن يحفل — واكتفى بأن أعان (أجوستينو) على جذب القارب إلى البر .

وقال الرجل وهو يعطى (أجوستينو) الأجر الذى اتفقا عليه ، ومبلغاً فوقه : « هاك ! » .. فتناول أجوستينو النقود وأعطاها إلى (سارو) ، قائلا فى لهجة الراضى عن نفسه : « على أننى سأحتفظ

بالعطاء » .. فلم يقل (سارو) شيئاً ، بل دس النقود فى الحزام المحيط ببطنه وهو لا يكاد يبتسم ، وسار متمهلا على الشاطىء نحو (كابينه) ..

* * *

● ومنح هذا الحادث البسيط (أجوستينو) شعوراً واضحاً ، قوياً ، بأنه لم يعد يمت إلى ذلك العالم الذى يعيش فيه الصبية الذين نشأوا نشأته .. فلقد ألف العيش مع الفقراء حتى غدا يضيق برياء سواهم من الناس .. بل لقد أحس فى الوقت ذاته بأسف لأنه لم يكن بالفعل مثل غلمان العصبة — فإنه ظل شديد الحساسية ، على خلافهم ! — وكان يفكر فى نفسـه أحياناً ، فيرى أنه لو كان مثلهم فعـلا ، لما تألم كثيراً لنكاتهم المقذعة ، الوقحة ، ومن ثم بدا له أنه فقد وضعه الأول ، دون أن يوفق إلى اكتساب وضع جديد !

الفصل الخامس

● وذات يوم ، حوالى نهاية الصيف ، ذهب (أجوستينو) مع الغلمان إلى غابات الصنوبر ليصطادوا طيوراً ، ويجمعوا نبات(عش الغراب) — وكانت هـذه (الحملات) أمتع مغامراتهم فى نظر (أجوستينو) — فدخلوا الغابة ، وساروا أميالا على أرضها الرطبة ، فى دروب طبيعية ، بين (أعمدة) حمراء من جذوع الشجر ، وهم يتطلعون إلى السماء ، ليتبينوا ما إذا كان ثمة شىء يتحرك بين أغصان الصنوبر .. فإذا لمحوا طائراً ، عمـــد (برتو) أو (تورتيا) أو (ساندرو) — وهم أمهر الجميع — إلى شد الخيط المطاط فى مقلاعه (نبلته) وأطلق حجراً قوياً فى الاتجـاه الذى يظن أن الطـائر يكمن فيـه !.. وفى بعض الأحيـان كان يهوى بالفعـل عصفور كسير الجناح ، ويظل يترنح وهو يرسل أنيناً يثير الإشفاق ، حتى يمسك به أحد الغلمان فيلوى عنقه بين أصابعه !

على أن الصيد كثيراً ما كان ينتهى بغير ثمرة ، فكان الصبيـة يوغلون فى الغابة على غير هـــدى ، وقد طوحوا برؤوسهم إلى خلف ، وعلقت عيونهم بنقطة بعيدة فوقهم .. ويمضون قدماً حتى ينفذوا إلى الأشجار الصغيرة ، وإلى أحراش متشابكة من النباتات الشوكية تنتشر فى التربة العارية ، الرطبة ، التى تكسوها الأوراق

والثمار الساقطة الجافة .. وما أن يبلغوا منطقة الأشجـار الحديثـة النبت ، حتى يشرعوا فى البحث عن النباتات الفطرية ..

وكان المطر قد ظل يهطل يوماً أو يومين قبـل أن يخرجوا إلى الغابة فى ذلك اليـوم ، فكانت أوراق الشجيرات لا تزال مخضلة بالمـاء ، والأرض محتفظة برطوبتها ، وقد كستها أعشاب حديثـة النمو .. وبين الحشائش الكثيفة ، كانت الفطريات الصفراء تتناثر ، والماء يتلألأ عليها .. منها ماكان منفرداً رائع الشكل ، ومنها ما كان صغيراً ، وقد نما فى مجموعات كبيرة .. وأخذ الغلمان يمدون أيديهم خلال الأعشاب فيقتطفون الفطريات فى رفق ، ممسكين رؤوسها بين إصبعين ، حريصين على أن يقطعوا سيقانهـا التى كان الوحـل والطحالب تعلق بها .. ثم أخذوا ينظمونها — « يلضمونها » — كحبات العقد ، فى أعواد من القش الجاف .. وكانوا فى العادة يمضون على هذا المنوال ، من بقعة إلى أخرى ، حتى يجمعوا عدة كيلوجرامات من الفطريات تكفى عشـاء لـ (تورتيا) ، الذى كان — بوصفـه أقواهم — يستأثر بما يجمعون ! .. وقد كان محصولهم فى ذلك اليوم وفيراً ، إذ كانوا قد عثروا على دغل بكر لم ترتده قدم من قبل ، وقد نمت فيه الطحالب بوفرة فى مستنقعاتها .. وهكذا ولت ساعات النهار وهم لم يجمعوا سوى نصف ماكان موجوداً ، فلم يجدوا بداً من أن يتحولوا عائدين بخطى مثقلة وئيدة ، مصطحبين عدداً كبيراً من الأعواد المحملة بالفطريات ، عدا طائرين أيضاً أو ثلاثة ..

وكانوا فى العادة يسلكون درباً يفضى مباشرة إلى الشاطىء ، ولكنهم فى ذلك المساء انساقوا مبتعدين عن ذلك الدرب ، يطاردون عصفوراً مخادعاً ظل يحوم بين الأغصان المنخفضة ، موحياً إليهم بأنه سهل المنال .. وهكذا انتهت بهم المطاردة إلى أن ساروا بمحاذاة طول الغابة حتى بلغوا طرفها الأقصى الواقع خلف البلدة مباشرة . وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله حين تجاوزوا شجيرات الصنوبر الأخيرة ، ووصلوا إلى مساحة تتوسط ضاحية نائية ، وقد تناثرت فيها أكوام من الفضلات والعوسج والقش ، وتخللتها بضعة دروب غير واضحة ، كثيرة التعرج والتثنى .. وكانت بعض الأشجار المضطربة النمو تقوم على مسافات حول الساحة ، ولم يكن ثمة أرصفة تحيط بها ، وإنما كانت تحد جوانبها حدائق مغبرة ملحقة بالمنازل الصغيرة — (الفيلات) — القليلة التى تفصل بين الواحد والآخر منها أرض فضاء ، يضمها سياج مهدم .. وكان قيام الدور الصغيرة متباعدة حول الساحة ، ومنظر السماء المترامية الأطراف فوقها ، يزيدان من الشعور بالعزلة ، والقذارة التى كانت تطبع المكان بطابعها ..

* * *

● واجتاز الأولاد الساحة من أحد أركانها إلى الركن المقابل ، وهم يسيرون أزواجاً ، كل اثنين معاً ، وكأنهم فى موكب دينى .. وفى نهاية الصف سار (تورتيا) و (أجوستينو) : وكان هذا

يحمل عودين طويلين محملين بالطحالب ، بينما أمسك (تورتيا) فى يديه الكبيرتين عصفورين تدلى رأساهما المخضبان بالدم .. فلما بلغوا أقصى الساحة ، لكز (تورتيا) بمرفقه (أجوستينو) ، وأشار إلى إحدى (الفيلات) الصغيرة ، وقال فى ابتهاج : « هل ترى هذه ؟ .. أتدرى ما هى ؟ » .

وأرسل (أجوستينو) بصره .. فإذا (الفيلا) لا تكاد تفترق عن مثيلاتها فى شىء ، سوى أنها أكبر من الأخريات قليلا ، إذ كانت تتألف من ثلاثة طوابق ، وسقف محدودب من القرميد ؛ وكانت واجهتها معتمة ، مدخنة ، ذات نوافذ بيضاء مغلقة بإحكام ، بينما كانت الأشجار الوارفة القائمة فى الحديقة تكاد تخفيها عن الأنظار ، ولم تبد الحديقة واسعة ، وكان السياج الحجرى المحيط بها مكسواً بالنباتات المتسلقة .. فإذا تطلع المرء خلال البوابة الخارجية رأى درباً قصيراً تحف بجانبيه الشجيرات القصيرة ، وباباً ذا مصراعين يعلوه قوس من البناء على طراز قديم . وكف (أجوستينو) عن السير ، قائلا لزميله فى لهجة تنم عن تساؤل : « إنها مهجورة ، لا أحد فيها » .. فضحك (تورتيا) وقال : « لا أحد ! ؟ » .. وبكلمات قلائل ، حدث (أجوستينو) عمن كان يعمر البيت ! .. وكان (أجوستينو) قد سمع الأولاد مراراً يتحدثون عن بيوت لا يعمرها سوى نسوة يحتجبن بداخلها طيلة النهار ، حتى إذا جن الليل تأهبن لاستقبال أى طارق ، فى مقابل

أجر معلوم !.. ولكن (أجوستينو) لم يكن قد رأى بيتاً منها من قبل، ومن ثم أيقظت كلمات (تورتيا) فى نفسه كل ما كان قد خالجه من عجب ودهشة وحيرة حين سمع الغلمان يتحدثون عن هـذه الدور لأول مرة .. فأحس اليوم – كما فى المرة الأولى – بأنه لا يكاد يصدق أن هناك ، حقاً ، مجتمعاً يذهب فى كرمه إلى درجة أنه يتيح للجميع ، دون إيثار أو محاباة ، ذلك « الحب » الذى كان يلوح له عزيز المنال ، بعيـد الوجود !.. ومن ثم أخـذ يرمق « الفيلا » الصغيرة بنظرات مستريبة ، وكأنه يتمنى لو وجد على جدرانها شيئاً ينم عما يجرى فى داخلها من حياة عز عليه أن يصدق وجودها!

كان البيت يلوح عتيقاً ، واضح الكآبة – إذا ما قورن بالصورة التى ارتسمت فى خيال (أجوستينو) لحجراته التى يشرق فى كل منها سناء امرأة عارية ! – فقال أخيراً وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، وإن كانت دقات قلبه قد أخذت تزداد سرعة : « آه .. أجل » .

فقال (تورتيا) : « .. إن هذا البيت أغلى ما فى البلدة أجراً! » .. ومضى يسرد بعض البيانات عن المكان ، وعـدد النسوة القاطنات فيه ، والناس الذين يرتادونه ، والوقت الذى يسمح لك بأن تقضيه فيه ، ولم ترق هذه المعلومات لأجوستينو ، فقد حلت بواقعيتها محل بعض تفصيلات الصورة المضطربة التى رسمها خياله حين سمع عن تلك الأماكن « المحـرمة » للمرة الأولى !.. على أنه أخـذ يوجه لصاحبه كثيراً من الأسئلة – فى لهجة تظاهر فيها بفضول فاتر –

إذ قفز إلى ذهنه فجأة ، بعد الدهشة والاستياء اللذين داخلاه لأول وهلة ، خاطر لم يلبث أن استبد به .. وبسط له (تورتيا) الذى بدا على دراية واسعة بالأمر – كل ما تاق إليـه من بيانات .. وعبرا الساحة وهما مستغرقان فى الحديث ، حتى لحقا بالآخرين . وإذ كان الظلام قد هبط تماماً ، فإن عقـد الجماعة أخذ فى الانفراط ، فأسلم (أجوستينو) حمله من الفطريات إلى (تورتيا) وانطلق إلى داره ..

* * *

كان الخاطر الذى راوده على أثر ذلك واضحاً ، بسيطاً – رغم أن منشأه كان معقداً ، غير جلى – فلقد قر رأيه على أن يذهب إلى تلك « الفيلا » فى الليلة ذاتها ! ولم يكن الأمر مجرد رغبة مبهمة ، وإنما كان قراراً حاسماً ، بل ملحاً ، إذ أحس أن هـذه هى السبيل الوحيدة التى تتيح له الفرار من ذلك الاتهام المهين الذى سبب له كثيراً من العذاب طيلة الصيف . فلو أنه استطاع أن يضاجع امرأة من أولئك النسوة ، لكان فى ذلك – كما خطر له – الدليل الحاسم على سخف الفرية التى ألصقها به الصبية .. بل إن ذلك كفيل – فى الوقت ذاته – بأن يوهن الخيط الرفيع الذى ما زال يربطه إلى أمه .. خيط الشعور الشهوانى الضال، القلق ! .. ومع أنه لم يكن يجرؤ على أن يعترف – ولو بينه وبين نفسه – بحقيقة هـذا الشعور ، إلا أن الهدف الأول لحياته فى الآونة الحاضرة بدا فى صورة الرغبة فى أن

يشعر بأنه أصبح إلى الأبد مستقلا ، فى غنى عن حب أمه ! .. سيما
وأنه كان قد صادف فى اليوم ذاته واقعة بسيطة – وإن كانت حافلة
بالمعانى – أقنعته بهذه الضرورة : تلك هى أنه حتى ذلك الحين كان
وأمه ينامان فى غرفتين منفصلتين ، لكنهما فى ذلك المساء كانا يرتقبان
صديقة لأمه ستقضى معهما أسبوعاً ، ولما كان البيت صغيراً ، فقد
رؤى أن تفرد غرفته هو للضيفة ، على أن يعد له سرير صغير – من
أسرة المعسكرات – فى غرفة أمه . ولقد شعر فى ذلك الصباح
باشمئزاز وهو يرى السرير الصغير يقام إلى جوار سرير أمه الذى
لم يكن قد سوى بعد ، والذى تناثرت عليه ثياب نومها ..

ولم يزده النوم مع أمه فى غرفة واحدة سوى كراهية للمشاعر
المختلطة المضطربة التى كانت تخالجه نحو أمه . وخطر له أن هذا
التطور الجديد الذى يزيده قرباً منها ، لابد أن يكشف له من أمرها
كل ماكان حتى الآن مجرد شك غير واضح .. إذن فعليه أن يبحث
عن علاج سريع ، وسريع جداً ، وأن يقيم بينه وبين أمه طيف
امرأة أخرى يحول إليها أفكاره ، إن لم يكن ببصره أيضاً .. ولن يكون
هذا الطيف الذى يقف ستاراً بينه وبين عرى أمه ، ويرد إليها مهابتها
ويحجب أنوثتها ، سوى إحدى نساء « الفيلا » القائمة فى الساحة ! ..
أما كيف يتاح له أن ينفذ إلى ذاك البيت ، وكيف يختار المرأة ويخلو
إليها ، فكانت مسائل لم يعرها أى تفكير .. بل إنه لو أراد لما استطاع
أن يتصورها ! .. فعلى الرغم مما زجاه إليه (تورتيا) من معلومات ،

ظل البيت وأهله وكل ما يمت إليه ، محوطاً بجو كثيف من عدم
الاحتمال ، وكان المرء إذ يفكر فيه لا يفكر فى حقيقة ، وإنما يفكر
فى أغرب افتراض شاذ لن يلبث فى اللحظة الأخيرة أن يتكشف عن
خيال زائف ! .. كان نجاح مشروعه يتوقف فى ذهنه على استنتاجات
منطقية : إذا كان هناك بيت ، فهناك أيضاً نساء .. وما دامت هناك
نساء ، فهناك إمكان لقاء إحداهن :: غير أنه لم يوقن بجلاء بأن للبيت
والنساء وجوداً حقيقياً ، لا لأنه كان يرتاب فى صدق (تورتيا) ،
وإنما لأنه كان يفتقر تماماً إلى أشياء يقيس إليها .. فما كان بين كل
ما فعل أو رأى من قبل ، شيء يشبه أقل الشبه ماكان يوشك أن
يقدم عليه ! ومن ثم ، فكما يتصور الهمجى الفقير قصور أوربا
– حين يسمع عنها – كنوع من الأكواخ يشبه كوخه ، وإن كان
يكبره حجماً :: كذلك لم يسع (أجوستينو) – وهو يحاول أن
يتصور أولئك النسوة وما يقدمن من عواطف – سوى أن يرسم
صورة لأمه ، مع بعض تعديلات وفوارق تافهة .. وأن يتصور
المضاجعة كمجرد رغبة مبهمة ، خيالية !

ولكن تجربته هذه بالذات ، أفضت به – كما يحدث عادة –
إلى أن يشغل باله بنواح « عملية » للمسألة ، كأنما كان حل هذه
النواحى كفيلا بأن يمكنه من أن يحل ما يحيط بها من غموض وعدم
واقعية .. وكانت من بين هذه النواحى التى شغلته ، مشكلة النقود
بوجه خاص ، فلقد بين له (تورتيا) بتفصيل تام ما سوف ينبغى

عليه أن يدفع ، ولمن يدفعه ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يستوعب هذه المسألة تماماً : إذ ما العلاقة بين النقود – التى تستخدم عادة فى الحصول على أشياء محددة ذات صفات ملموسة – وبين عواطف أية امرأة .. ولحمها العارى ؟

وبدت له فكرة دفع نقود فى مقابل المتعة المخجلة ، المحرمة ، فكرة قاسية ، غريبة ، مهينة ، قد تبدو لمن يدفع النقود مستعذبة .. لكنها ولابد مؤلمة للطرف الآخر الذى يتلقى النقود !.. فهل من الصحيح حقاً أنه مضطر إلى أن يدفع النقود للمرأة مباشرة ، وفى حضورها ؟ ؟: وأحس بأن من الخليق به أن يخفى النقود بطريقة ما ، وأن يترك المرأة وهى تخال أن علاقتهما بريئة من كل مصلحة !.. ثم ، ألم يكن المبلغ الذى ذكره (تورتيا) زهيداً جداً ؟ .. إن أى مبلغ – مهما يبهظ – لن يكفى لأن يكون ثمناً لمثل هذه التجربة .. التجربة التى تختم إحدى مراحل حياته ، لتبدأ بعدها مرحلة أخرى !

إزاء هذه الهواجس قرر أن يتبع ما قاله (تورتيا) بحذافيره – حتى لو تبين أنه خطأ – إذ لم تكن لديه معلومات أخرى يبنى عليها خطة يتصرف بمقتضاها . كان قد عرف من صديقه كم تكلفة زيارة (الفيلا) ، ولم يكن المبلغ يربو على ما ادخر منذ أمد طويل فى (الحصالة) المصنوعة من الفخار .. فهو ولابد قادر على أن يجمع من العملات الصغيرة والنقود الورقية – التى احتوتها الحصالة – المبلغ اللازم ، بل وقد يجد أكبر منه . وتمثلت خطته فى أن يستخرج

المبلغ من (الحصالة) ثم يتريث حتى تذهب أمه إلى المحطة لاستقبال صديقتها ، وإذ ذاك يخرج بدوره فيبحث عن (تورتيا) ، ويقصد معه إلى (الفيلا) ! ولابد من أن يحمل معه مبلغاً يكفى لتورتيا أيضاً ، إذ كان يعرف أنه فقير ، وأنه ما كان ليؤدى له صنيعاً ما لم يحصل لنفسه على مقابل له على الأقل ..

كانت هذه خطته ، ومع أنها ظلت تبدو له مستبعدة وغير محتملة ، إلا أنه عقد العزم على أن يتأهب لها ، بنفس العناية والدقة اللتين يعد بهما العدة للانطلاق فى نزهة بالقارب ، أو فى رحلة إلى غابات الصنوبر !

الفصل السادس

• وقطع كل المسافة بين الميدان النائى وبيت أمه، جرياً ، فى لهفة وانفعال، وقد تحرر للمرة الأولى من سموم الندم، وتأنيب الضمير، والتردد ! .. وكان الباب الأمامى للبيت موصداً ، ولكن نوافذ قاعة الجلوس كانت مفتوحة ، وقد انسابت منها أنغام موسيقية . كانت أمه توقع على المعزف ..

ودخل ، فإذا المصباحان الخافتان القائمان على المعزف يلقيان ضوءهما على وجهها ، بينما كانت بقية الحجرة غارقة فى الظلام .. وكانت أمه على مقعد المعزف، وعلى مقعد آخر – بجوارها – جلس الشاب صاحب الزورق . وكانت هذه أول مرة يراه فيها (أجوستينو) فى بيتهما ، فداخله إحساس مفاجىء ملك عليه أنفاسه ! وبدا أن أمه أحست بوجوده ، بإلهام ما ، إذ أدارت رأسها بحركة هادئة فيها دلال غير متعمد – دلال أحس (أجوستينو) أن الشاب هو المقصود به دونه ! – وكفت فى الحال عن العزف حين رأته ، ونادته إليها قائلة : « ما معنى قدومك فى هذه الساعة يا (أجوستينو) ؟.. تعال هنا » ..

وتقدم من المعزف فى بطء ، وقد فاضت نفسه بالسخط والحيرة ؛ فشدته أمه إليها ، وأحاطته بذراعها . ولاحظ أن عينى أمه على غير عهده بهما : براقتين ، متألقتين ، تفيضان شباباً ..

وبدا كأن الضحك يوشك أن يتفجر من خلال شفتيها ، مما أظهر أسنانها اللامعة ، وأزعجته بالشدة التى اجتذبته بها إليها ، إذ بلغت مبلغ العنف ، وكأنها كانت ترتجف اغتباطاً ، وكان واثقاً من أن هذه الظواهر لا تمت إليه شخصياً بصلة .. على أنها –لفرط دهشته– ذكرته بالانفعال الذى كان يساوره قبل دقائق ، وهو يجرى إلى البيت ملهوفاً مشوقاً إلى أخذ مدخراته والذهاب مع (تورتيما) إلى (الفيلا) .. والاستمتاع بامرأة !

ومضت أمه تقول ، فى صوت جمع بين الحنان ، والقسوة ، والاغتباط : « أين كنت ؟ .. أين كنت كل هذا الوقت أيها الولد العديم النفع ؟ » .. ولم يحر (أجوستينو) جواباً ، بل شعر أن أمه لم تكن تتوقع جواباً فى الواقع ، وإنما كانت تحدثه كما اعتادت أن تخاطب القط فى بعض الأحيان ! وكان صاحبها الشاب منحنياً إلى الأمام، محيطاً ركبتيه بيديه، وبين إصبعيه سيجارة ، وقد راح يحدق فى صديقته بعينين باسمتين متألقتين كعينيها .. وعادت هى تردد لابنها : « أين كنت ؟ .. ما أكثر إهمالك إذ تستسلم للعب والفراغ بهذا الشكل ؟ » .

وعبثت بشعره على جبينه ثم أعادت تسويته بيدها الدافئة ، الرشيقة ، فى حركات حنون – كان يخالطها شىء من العنف ، لم تجد حيلة لمقاومته ! – ثم قالت فى فخر وهى تلتفت إلى الشاب : « أليس غلاماً جميلا ؟ » .. فأجاب الشاب : « إنه جميل ، كأمه » ..

وابتسمت فى دلال لهذه المجاملة ، بينما تملص (أجوستينو)
ليتخلص من عناقها ، وقد امتلأت نفسه اشمئزازاً وخجلاً ،
فقالت له : « اذهب فاغتسل .. وتعجل لأننا لن نلبث أن نذهب
إلى العشاء بعد قليل » .. فحيا (أجوستينو) الشاب بانحناءة خفيفة
وغادر الغرفة . وسمع الموسيقى تستأنف تواً من حيث قطعها
بوصوله ..

* * *

● على أنه لم يكد يصل إلى الردهة حتى سمر فى مكانه ، ينصت
إلى الأنغام التى كانت أصابع أمه تعزفها . وكانت الردهة مظلمة ،
وفى نهايتها امتد بصره خلال الباب المفتوح إلى المطبخ الواضح
الضياء ، حيث كان الطاهى بزيه الأبيض يروح ويغدو بين المنضدة
وأدوات الطهو . وكانت أمه سادرة فى العزف ، وقد بدت الأنغام
لأجوستينو مرحة ، صاخبة ، مشرقة ، كذلك الوميض الذى كان
يلمع فى عينى أمه وهى تضمه إلى جانبها .. ربما كانت الأنغام
بطبيعتها كذلك .. وربما بثت فيها أمه شيئاً من النار المضطرمة فى
نفسها، ومن إشراقها، ومرحها .. وكانت الموسيقى تتردد فى جنبات
البيت كله ، فألفى (أجوستينو) نفسه يفكر فى أن كثيراً من الناس
قد وقفوا ولابد فى الطريق ينصتون ، ويعجبون للخلاعة المشبنة التى
كان كل نغم يفيض بها ؟
ثم توقف الصوت فجأة فى منتصف إحدى النغمات ، وأحس

(أجوستينو) عن يقين — لم يستطع أن يدرى مبعثه — بأن العاطفة
التى وجدت فى الموسيقى تعبيراً عنها ، قد وجدت فجأة متنفساً
آخر ؟ .. وتقدم خطوتين ، ووقف جامداً على عتبة باب قاعة
الجلوس .. ولم يدهشه كثيراً ما رأى : كان الشاب واقفاً يطبع
قبلة على شفتى أمه . أما هى فكانت مائلة إلى الخلف ، على المقعد
الذى كان أصغر من أن يتسع لجسمها ، وما زالت إحدى يديها
على مفاتيح المعزف ، بينما طوقت اليد الأخرى عنق الشاب ؟
وبالرغم من خفوت الضوء ، فإنه استطاع أن يرى جسمها فى
تقوسه إلى الوراء ، وقد نفر صدرها إلى الأمام ، وانثنت إحدى
ساقيها خلفها ، بينما امتدت الأخرى نحو قاعدة المعزف : وعلى
النقيض من إسرافها فى استسلامها العاطفى ، كان الشاب محتفظاً
بما اعتاد أن يظهر به من بساطة واتزان : وكان من الواضح أنه
إذ أحاط عنقها بإحدى ذراعيه — وهو واقف — فإنما صدر ذلك
عن خوف عليها من أن تقع ، أكثر من انسياق لعاطفة عارمة ..
وكانت ذراعه الأخرى إلى جانبه ، وما زالت السيجارة بين
إصبعيه ، بينما كانت ساقاه فى سروالها الأبيض ، وقد ثبتتا فى
وقفتهما منفرجتين ، تعبران عن اعتداد وسيطرة تامة على الموقف.
ودامت هذه القبلة طويلا ، وقد بدا لأجوستينو أن أمه كانت
تتشبث بشفتى الشاب فى نشوة متزايدة كلما هم بأن يضع لها نهاية ؟
ولم يتمالك (أجوستينو) أن شعر أنها كانت جائعة ، منهومة فى القبلة ،

كشخص طال به الجوع إلى الطعام أياماً ؟ .. وما لبث أن انبعث فى الحجرة نغمتان أو ثلاث نغمات حلوة ، بحركة عابرة من يدها . وفجأة ، افترقا .. فاتخذ (أجوستينو) خطوة إلى الأمام ، وقال : «ماما» .. واستدار الشاب على عقبيه وسار إلى النافذة فوقف عندها ، وساقاه منفرجتان ، ويداه فى جيبه ، متظاهراً بالنظر إلى الخارج .

وقالت الأم : « أجوستينو ؟ » .. فتقدم منها ابنها ، وكانت تتنفس فى عنف — حتى لقد كان يرى بجلاء ثدييها خلال ثوبها الحريرى وهما يرتفعان وينخفضان — وكانت عيناها أكثر تألقاً من قبل ، وشفتاها منفرجتين ، وشعرها مضطرباً ، وقد تهدلت منه على صدغها خصلة ناعمة مدببة ، كأنها ثعبان حى؟ .. ورددت فى صوت خفيض ، متهدج ، وهى تبذل وسعها لتسوى من شعرها : « ماذا بك ياأجوستينو ؟ » .. وأحس الفتى بدفعة مفاجئة من إشفاق ممتزج باشمئزاز ، وود لو يصرخ فيها : « هدئى من روعك .. لا تلهثى هكذا .. لا تحدثينى بهذا الصوت ؟ » .. ولكنه بدلا من ذلك اصطنع صوتاً صبيانياً ، وقال فى لهفة مغالى فيها : « ماما .. هل أفتح (حصالتى) ؟ .. إننى أريد أن أبتاع كتاباً » .

فأجابت : « أجل يا عزيزى » .. ومدت يداً تربت بها مقدم رأسه ، فلم يتمالك (أجوستينو) أن أجفل للمستها ؟ وكانت حركاته من الضآلة بحيث يتعذر الإحساس بها ، ولكنها لاحت له من العنف بدرجة أحسها الجميع .. فقال : « حسناً جداً .. إذن سأفتحها » .

وبادر إلى مغادرة الغرفة دون أن ينتظر جواباً .. لقد كانت فكرة (الحصالة) مجرد حجة انتحلها ، حين رأى أمه فى ذلك المنظر فلم يدر ماذا ينبغى أن يقول !

* * *

● وكانت غرفته مظلمة ، و (الحصالة) على منضدة فى الطرف الأقصى .. وقد انساب خلال النافذة المفتوحة شعاع من مصباح الشارع ، وقع على الجزء الوردى المنبعج من (الحصالة) وعلى ثغرها الأسود الواسع المبتسم ..

وأضاء (أجوستينو) نور الحجرة ، وتناول (الحصالة) وطوح بها إلى الأرض بعنف مهووس ، فتحطمت للتو ، وتبعثرت من ثغرتها الواسعة كمية من النقود من كل فئة — فقد كانت بها أوراق نقدية عديدة مختلطة بالقطع المعدنية — فركع على يديه وركبتيه ، وشرع يحصى النقود فى لهفة ، وأصابعه ترتجف ؛ وصورة أمه وصديقها فى قاعة الجلوس تختلط بالنقود المبعثرة على الأرض ، وهو يجمعها ويحصيها .. صورة أمه منحنية إلى الوراء على مقعد المعزف ، والشاب منحن عليها .. على أنه لم يلبث أن تبين — إذ فرغ من العد — أن النقود لا تصل إلى المبلغ الذى كان يحتاج إليه !

ترى ماذا يفعل ؟ .. ولمع بخاطره أنه قد يستطيع أن يحصل على الباقى من أمه ، إذ كان يعرف أين تحفظ نقودها ، ولن يكون ثمة أسهل من الوصول إليها .. ولكنه استنكر هذه الفكرة ، وقرر أن

يسألها نقوداً بصراحة .. ولكن ، أى عذر يبديه ؟ .. وخطر له فجأة عذر مناسب ، بيد أنه فى تلك اللحظة سمع الدقات النحاسية المعلنة لإعـداد العشاء ، فبادر بخفى (ثرونه) فى أحد الأدراج ثم هبط إلى الطابق الأسفل .

وكانت أمه تجلس إلى المائدة ، والنافذة مفتوحة على مصراعيها ، وفراشات مخملية كبيرة تنساب خلالها قادمة من الحديقة ، لتضرب بأجنحتها المصباح الأبيض . وكان الشاب قد انصرف ، واستردت المرأة وقارها المهيب المعتاد . وعجب (أجوستينو) وهو يتأملها ، كيف أن فمها لم يكن يحمل أثراً للقبلات التى طبعت عليه منذ بضع دقائق مضت ؟ ! تماماً كما عجب فى المرة الأولى التى خرجت فيها مع الشـاب فى زورقه . وماكان بوسعه أن يحـدد الأحاسيس التى أيقظتها هذه الفكرة فى نفسه : فمن شعور بالعطف والرثاء نحو أمه التى بدا أن تلك القبلات كانت غالية لديها ، ومبعث اضطراب لها ! .. إلى شعور آخر — فى الوقت ذاته — بالتقزز والاستنكار ، لا لما رأى ، وإنما للذكرى التى بقيت فى نفسه ! .. ولكم ود الغلام أن يقصى تلك الذكرى عن باله ، وأن يتناساها إطلاقاً . ترى كيف يتسنى لهـذه المناظر المزعجة ، المؤثرة ، أن تنفذ إلى النفس خـلال العين ؟.. لقد أدرك (أجوستينو) مقدماً أن هذا المنظر سيظل إلى الأبد مطبوعاً على صفحة ذاكرته !

* * *



لقد كانت فكرة (الحصالة) مجرد حجة انتحلها ، حين رأى أمه فى ذلك المنظر فلم يدر ماذا ينبغى أن يقول !..

● وإذ فرغا من العشاء ، نهضت أمه عن المائدة ، فصعدت إلى الطابق العلوى ؛ وخطر لأجوستينو أنه لن يصادف لحظة خيراً من هذه ليطلب منها نقوداً ، فتبعها إلى غرفتها . وجلست أمه إلى منضدة الزينة ، وأخذت تتأمل وجهها فى المرآة صامتة .. فهتف بها (أجوستينو) : « ماما » .. فقالت وهى شاردة الذهن : « ماذا ؟ » .

— أريد عشرين ليرة .

— لماذا ؟

— لأبتاع كتاباً !

فقالت فى رفق وهى تنثر (البودرة) على وجهها : « ألم تقل إنك ستكسر (حصالة) نقودك ؟ » .. فاصطنع (أجوستينو) عذراً صبيانياً ، إذ قال : « بلى ، ولكن لن تتبقى لى نقوداً إذا كسرتها .. إننى أريد أن أشترى كتاباً دون أن أكسر الحصالة » .

فضحكت أمه فى ود قائلة : « يالك من طفل ! » .. وتأملت نفسها فى المرآة لحظة أخرى ، ثم قالت : « ستجد كيس نقودى فى الحقيبة على فراشى . خذ عشرين ليرة ، ورد الكيس إلى الحقيبة » ؛

وسار إلى السرير ، ففتح الحقيبة ، وأخذ الكيس ، فتناول منه عشرين ليرة .. ثم ، ضم قبضته على الورقتين الماليتين ، وألقى بنفسه على السرير الصغير الذى أعد له بجوار سرير أمه . وكانت هى قد فرغت من زينتها ، فاقتربت منه قائلة : « ما الذى تنتوى فعله الآن ؟ » .. فقال وهو يتصفح كتاباً يتضمن بعض قصص

المغامرات ، وجده مصادفة على المنضدة المجاورة للسرير ، ففتحه عند أحد الرسوم : « سأقرأ هذا الكتاب » .

— حسناً ، ولكن ، لا تنس أن تطفىء النور حين تنام .

وكانت لا تزال تروح وتغدو فى الغرفة ، فظل مستلقياً يراقبها ، وقد أسند رأسه إلى ذراعه : وخامره شعور غير واضح بأنها لم تكن قط فى مثل جمالها فى تلك الليلة ! كان ثوبها الحريرى الأبيض اللامع ، يظهر سمرة بشرتها المشوبة بتورد وافر من أثر الشمس .. وكأنها — بإنعاشها شخصيتها السابقة ، دون أن تفطن أو تتعمد — قد استردت ، على ما ظهر ، كل ما اعتاد أن يكون لها من وقار عذب ، مهيب .. بل وأضفت عليه نفحة من هناء لا سبيل إلى وصفه ! .. لقد كانت طويلة القامة ، بيد أن (أجوستينو) لم يرها من قبل فى مثل مابدت فيه إذ ذاك من تناسق : وكأنما كان وجودها يملأ الحجرة ، وهى تروح فيها وتغدو فى جلال ، كطيف أبيض ، وقد استوى رأسها برشاقة على عنقها البديع ، واستقرت عيناها هادئتين تحت حاجبيها الساجيين .. ثم أطفأت جميع الأضواء عدا المصباح القائم على المنضدة المجاورة للسرير ، وانحنت تقبل ابنها ..

وعب (أجوستينو) مرة أخرى عبق العطر الذى كان خبيراً به ، حتى إذا مس عنقها بشفتيه لم يتمالك أن ساءل نفسه ، عما إذا كانت أولئك النسوة .. اللائى فى (الفيلا) :: فى مثل جمال أمه ، وعبيرها؟!

وإذ خلا إلى نفسه ، تريث حوالى عشر دقائق ليستوثق من

انصراف أمه ، ثم نهض عن السرير الصغير ، فأطفأ النور ، وراح
إلى حجرته الخاصة على أطراف أصابع قدميه .. حتى إذا بلغها راح
يتحسس طريقه فى الظـلام إلى المنضـدة المجاورة للنافذة ، ففتح
درجها ، وملأ جيوبه بالعملات المعدنية والورقية ، ثم تحسس بيده
كل ركن فى الدرج ليتأكد من خلوه .. وغادر الحجرة !

* * *

● وما أن خرج إلى الطريق ، حتى شرع يجرى .. وكان (تورتيا) يقيم فى الطرف الآخر للبلدة ، فى حى العمال والملاحين : ومع أن البلدة كانت صغيرة ، إلا أنه قطع مسافة طويلة للوصول إلى مقصده. وكان يختار الدروب المعتمة التى تمتد على حواف غابات الصنوبر ، ويغذ السير أحياناً ، ويعمد إلى الجرى فى أحيان أخرى ، ماضياً قدماً ، حتى لاحت له ، بين دارين ، أشرعة المراكب التى كانت رهن الإصلاح فى الحوض الجاف . وكان منزل (تورتيا) بعد الحوض مباشرة ، خلف الجسر الحديدى المتحرك الذى كان يقوم على القناة المفضية إلى الميناء : وكانت البقعة تتراءى فى النهار ، منسية ، خربة ، تتناثر على حواف أرصفتها الواسعة المهجورة ، التى تلهبها أشعة الشمس ، مخازن ومحال متداعية ، ويعبق جوها بروائح السمك والقار ، وتبدو مياه البحر عندها خضراء ، زيتية ، راكدة ، تجثم فيها مراكب الآلات الرافعة ، ومراكب نقل الحصى : أما فى تلك الساعة ، فقد جعلها الليل تبدو كبقية أرجاء

البلدة ، لو لم تنم عن وجود مياه المرفأ خلف البيـوت ، مركب شراعية كبيرة ظهرت جوانبها المنتفخة وأشرعتها فوق حافة الرصيف.

وعبر (أجوستينو) الجسر ، ويمم شطر صف من الدور على الجانب الآخر للقناة . وكانت مصابيح الطريق المتباعدة ، تلقى أضواءها على جدران تلك البيوت الصغيرة ، على مسافات غير منتظمة .. ووقف (أجوستينو) أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها ، ينبعث النور منها ، وتتصاعد من خلفها أصوات أفراد ، وصلصلة أطباق ، وكأن هناك قوماً يتناولون الطعام . ودس الغلام أصابعه فى فمه ، وأرسل صفيراً عالياً مرة ، وخافتاً مرتين — وهى الإشارة المتفق عليها بين صبية العصابة ! — وسرعان ما ظهر شخص فى النافذة ، فقال (أجوستينو) بصوت خافت ، خجول : « أنا .. بيزا » . فأجاب الشخص — وكان (تورتيا) بالذات : « أنا قادم » .

وهبط (تورتيا) وهو لا يزال يلوك فى فمه اللقمة الأخيرة من الطعام ، وقد احمر وجهه من النبيذ الذى كان يشربه ، فقال (أجوستينو) : « لقد جئت كى نذهب إلى (الفيلا) .. إن معى النقود .. مبلغاً يكفى كلينا » .. فتطلع (تورتيا) إليه وهو يبتلع بعناء ما فى فمه ، وقد بدا أنه لم يفهم ؟.. فأردف (أجوستينو) : « الفيلا التى فى الجانب الآخر من الميدان .. حيث توجد النسوة » .. فقال (تورتيا) وقد فهم مقصده أخيراً : « آه .. لقد ظللت تفكر فى الأمر ؟ .. مرحى يا بيزا .. سألحق بك بعد لحظة » . وهرع إلى

داخل البيت ، فأخذ (أجوستينو) يخطر جيئة وذهاباً فى انتظاره ، وقد علقت عيناه بنافذة الدار . وطال انتظاره أمداً ، بيد أن (تورتيا) ما لبث أن ظهر فى النهاية، فلم يكد (أجوستينو) يعرفه !.. كان قد عهده دائماً « غلاماً كبيراً » ، فى سروال ثنيت ساقاه إلى أعلى ، أو نصف عار ، على ساحل البحر أو فى مائه .. أما الآن ، فقد رأى أمامه شاباً من الطبقة العاملة فى ثياب النزهة الداكنة : سروال طويل الساقين ، وصديرى ، وقميص له ياقة وربطة عنق .. كما أنه بدا أكبر سناً مما اعتاد أن يراه ، بسبب (البريانتين) الذى نسق به شعره ، وقد كان فى العادة أشعث مضطرباً .. وأضفت عليه الثياب العادية التى كان يختال فيها للمرة الأولى ، مظهراً يدعو للسخرية !

وقال (تورتيا) وهو ينضم إلى مرافقه : « أنذهب الآن ؟ » .. فقال (أجوستينو) وهو يغذ السير إلى جواره ، عابرين الجسر : « هل حان وقت الزيارة ؟ » .. فأجاب (تورتيا) ضاحكاً : « كل وقت ملائم للزيارة هناك ! » .

* * *

● وسلكا طريقاً غير ذاك الذى قدم منه (أجوستينو) ، ولم يكن الميدان بعيداً .. ولم يلبث (أجوستينو) أن تساءل : « لكن .. هل ذهبت إلى هناك من قبل ؟ »

— ذهبت إلى بيوت مشابهة .. ولكنى لم أذهب إلى هذا البيت :

ولم يكن يبدو على (تورتيا) أى تعجل ، بل راح يسير فى خطوته العادية ، قائلا : « كأنى بهن الآن أوشكن على الفراغ من العشاء ، ولن يكون ثمة زائرون .. إنه موعد ملائم » .

فسأله أجوستينو : « ولماذا ؟ »

— لماذا ؟ .. ألا ترى أن بوسعنا فى هذه الحال أن نختار من يحلو لنا اختيارها منهن ؟

— وكم واحدة هناك ؟

— أوه .. أربع أو خمس ..

وتاق (أجوستينو) إلى أن يسأله عما إذا كن جميلات ؛ ولكنه أحجم .. ثم قال فى تهيب : « وماذا علينا أن نفعل ؟ » .

وكان (تورتيا) قد أخبره من قبل ، بيد أن الشعور بأن الأمر كله بعيد عن الواقع والحقيقة ، كان قد استبد به ، وجعله يصبو إلى أن يسمع من جديد ما يؤكد واقعيته ! ..

وقال (تورتيا) : « ماذا تفعل ؟ .. ليس هناك ماهو أسهل من هذا الأمر : تدخل ، فتخف النسوة إليك ، ويعرضن أنفسهن أمامك .. فتقول : « مساء الخير يا سيداتى » ، ثم تصطنع حديثاً ما برهة من الزمن ، لتتيح لنفسك مهلة كافية لتأملهن .. ثم تختار واحدة : أهذه هى المرة الأولى لك ؟ » .

فشرع (أجوستينو) يقول : « الواقع .. » . ثم أسكته الخجل ،

فصاح (تورتيا) فى تحد : « تكلم ! .. ما أظنك تجرؤ على أن تقول لى إنها ليست المرة الأولى .. قل هذا للآخرين إن شئت ، ولكن ليس لى ! ومع ذلك ، فلا تخف .. إنها ستفعل كل شىء دون أن تحيرك .. اترك الأمر لها » .

ولم يقل (أجوستينو) شيئاً ، إذ لذت له الصورة التى أوحى إليه بها (تورتيا) .. صورة المرأة وهى تعلمه الحب .. وخيل إليه أن نفحة من الأمومة تمازجها ! .. ومع كل ذلك ، فقد ظل غير مصدق . وفجأة وقف مسمراً فى مكانه ، وهو ينظر إلى ساقيه العاريتين ، وتساءل : « ولكن .. ولكن ، هل تظن أنهن سيقبلننى هناك ؟ » .

وحار (تورتيا) لحظة إزاء هذا السؤال ، ثم قال فى اعتداد زائف بنفسه : « هيا بنا ، وسنعمل إذ نصل هناك على إدخالك » .

* * *

● وأفضت بهما حارة ضيقة إلى الميدان ، فإذا به مظلم بأكمله ، فيما عدا ركن من أركانه قام فيه مصباح وحيد يلقى ضوءاً خافتاً على مساحة من الأرض الخالية ، تكسوها الرمال . وتجلت لهما السماء فوق الميدان ، فإذا القمر هلالا ، وقد بدا ضارباً للحمرة ، وكساه الضباب بغلالة كالدخان ، انساب منها خيط رفيع لاح كأنه يشطر الهلال نصفين .. وفى أشد الأركان عتمة ، اهتدى (أجوستينو) إلى

(الفيلا) ، إذ لمح مصاريع نوافذها البيضاء ، وكانت كلها مغلقة ، لا يتسرب منها ضوء ما . وعبر (تورتيا) الميدان إلى (الفيلا) فى غير تردد ، لكنه حين بلغ وسط الميدان ــ تحت القمر تماماً ــ سأل أجوستينو : « هل معك النقود ؟ .. أعطنيها ، فمن الأفضل أن تكون معى » .

ــ ولكن .. وأنا .. ؟

... ولم يتم (أجوستينو) عبارته : إنه لم يكن شديد الاطمئنان إلى (تورتيا) ، بيد أن هذا ألح قائلا فى خشونة : « هل ستعطينيها؟ » .. وأحس (أجوستينو) باستحياء لأن معظم المبلغ تألف من عملات صغيرة .. ولكنه انصاع لإنذار (تورتيا) ، فأفرغ فى يديه ما كان فى جيوبه ، وإذ ذاك قال الفتى : « والآن ، اعقل لسانك فى فمك وتعال معى » .

وأخذ الظلام يخف وطأة كلما اقتربا من (الفيلا) ، فاستطاعا أن يتبينا حافتى الباب الخارجى ، والدرب الذى يمتد خلال الحديقة الباب الأمامى لمبنى الدار ، ثم الباب ذاته والمظلة الزخرفية التى تعلوه . ولم يكن الباب الخارجى موصداً ، فدفعه (تورتيا) ونفذ إلى الحديقة .. وكان مصراعا الباب الخارجى مواربين ، فصعد (تورتيا) الدرجات المفضية إليهما ، ونفذ خلالها مشيراً إلى (أجوستينو) بأن لا يحدث صوتاً . وتلفت (أجوستينو) حوله فى فضول ، ثم نظر خلال الباب فرأى ردهة خاوية ، قام عند

نهايتها باب ذو مصراعين زانهما زجاج أحمر وأزرق انعكست عليه أضواء منبعثة من خلفه ، فبدا منظره بهيجاً ..

* * *

● ووشى بدخولهما رنين أجراس ، فبادر إلى النهوض خيال ضخم لشخص كان يجلس وراء الباب الزجاجى ، وبرزت لهما فى إطار الباب امرأة . كان يبدو أنها خادم ، فى أوسط العمر ، مفرطة السمنة ، ذات صدر واسع ضخم ، وقد ارتدت ثوباً أسود ، وأحاطت وسطها بمرولة بيضاء ؛ وتقدمت نحوهما يسبقها بطنها المكرش ، وذراعاها يهتزان إلى جانبيها . وكان لها وجه منتفخ ، وعينان متجهمتا النظرات ، تتطلعان فى توجس من تحت شعر غزير .

وقال تورتيا : « ها قد وصلنا » .. لكن أجوستينو اشتم من صوته ومسلكه أنه هو الآخر أحس بحرج واستخذاء ، رغم ما كان يبديه من جسارة ! .. وتأملتهما المرأة لحظة ، ثم أشارت تدعو (تورتيا) إلى الدخول ، فابتسم وقد استرد اعتداده ، وأسرع نحو الباب الزجاجى . وإذ ذا ذاك هم (أجوستينو) بأن يتبعه ، ولكن المرأة ألقت يدها على كتفه قائلة : « أنت .. لا » .

فصاح (أجوستينو) وقد نسى خوفه فى الحال : « ماذا ؟ .. لماذا يدخل هو ولا أدخل أنا ؟ » .. فقالت المرأة فى حزم : « الواقع أنه ليس لكليكما نصيب هنا ، ومع ذلك فهو قد أشرف على السن المناسبة ، أما أنت .. فلا » .

وقال (تورتيا) ساخراً ، وهو يفتح الباب ويختفى وراءه : « إنك جد صغير يا بيزا » .. وظل شبحه يبدو خلف الزجاج لحظات ، ثم تلاشى فى الضوء الباهر ! .. فقال (أجوستينو) فى إلحاح وقد هاله غدر تورتيا : « وماذا سيكون من أمرى ؟ » .. فقالت المرأة : « هيا اخرج ياولد .. عد إلى بيتكم » .. وسارت إلى الباب ففتحته على سعته ، وإذا بها ترى نفسها وجهاً لوجه أمام رجلين كانا يهمان بالدخول . وكان أحدهما ذا وجه أحمر ، بشوش ، وقد ابتدرها بقوله : « مساء الخير .. مساء الخير » ، ثم التفت إلى زميله ــ وكان شاباً نحيلا شاحباً ــ وقال : « إذن ، اتفقنا ! .. إذا كانت (بينا) غير مشغولة ، فستكون من نصيبى .. فلا تدع مجالا للجدل السخيف فى هذا الصدد » . فقال الآخر : « اتفقنا » ؛

وعاد ذو الوجه البشوش يقول للمرأة مشيراً إلى أجوستينو : « ما الذى يفعله هذا الفتى الصغير هنا ؟ » .. فقالت المرأة وقد قفزت إلى شفتيها ابتسامة مترددة : « لقد أراد أن يدخل ! » .. فصاح الرجل ملتفتاً إلى أجوستينو : « إذن فقد أردت أن تدخل ؟ .. إن البيت هو المكان اللائق بمن فى عمرك فى هذه الساعة ! » .. ثم صاح به ملوحاً بذراعيه : « هيا إلى البيت » .

قالت المرأة : « هذا ما قلت له » .. فتدخل الشاب الآخر : « ولماذا لا ندعه يدخل ؟ .. لقد كنت فى مثل سنه أطارح الخادم الهوى ! » .. فصاح الآخر مبهوتاً ، مستنكراً : « ويلى ! .. هيا إلى

البيت يا غلام .. إلى البيت .. إلى البيت ! » .. ثم انساب خلال الباب الزجاجى ، يتبعه الشاب المنصف .. وارتد الباب خلفهما فى قوة . وألفى (أجوستينو) نفسه فى الحديقة — خارج الدار — دون أن يدرى كيف بلغها ! .. ألا ما أسوأ ما انتهت إليه الأمور جميعاً . لقد غرر به (تورتيا) فأخذ كل نقوده ، ثم تركه يطرد خارج الدار ! .. وإذ لم يدر التعس ما ينبغى أن يفعل ، سار فى الدرب المفضى إلى الباب الخارجى ، وهو يلتفت طيلة الوقت نحو باب المبنى الذى كان موارباً ، والمظلة الزخرفية التى كانت تعلوه ، وواجهة المبنى بمصاريع نوافذها البيضاء . وخالجه شعور من الاستياء راح يلهبه كالسياط ، سيا بعد ما كان من ذينك الرجلين اللذين عاملاه كما لو كان طفلا ! .. ولاح له أن ضحك الرجل المرح ، والطيبة الباردة التى أبداها زميله — صاحب التجربة — لم يكونا أقل إذلالا له من ذلك العدوان البغيض الذى قابلته به المرأة ! .. واتجه إلى الباب الخارجى وهو ما يزال يتلفت خلفه ، وحوله ، متأملا الأشجار والشجيرات التى كانت فى الحديقة . ومالبث أن رأى أن الجانب الأيسر من (الفيلا) كان مضاء بنور قوى بدا منبعثاً من نافذة مفتوحة بالطابق الأرضى : وخطر له أن يحظى على الأقل بنظرة إلى مافى داخل الدار خلال تلك النافذة ، فاتجه صوب الضوء ، وهو يحرص على أن لاتصدر عنه إلا أقل ضجة ممكنة :

* * *

● وصح ما دار بخلده .. كان النور ينبعث من نافذة مفتوحة على مصراعيها فى الطابق الأرضى . ولم تكن حافة النافذة مرتفعة ، فسعى للوصول إليها فى هدوء ، وهو يلتزم ركناً لا يتسنى لأحد أن يراه فيه .. ثم أرسل بصره خلال النافذة إلى الداخل ..

كانت الغرفة صغيرة ، متألقة الأضواء ، وقد كسيت جدرانها بورق ذى زخارف أنيقة تمثل زهوراً كبيرة يمتزج فيها اللونان الأخضر والأسود . وفى مواجهة النافذة ، كان ثمة ستار أحمر ، يتدلى من حلقات خشبية حول قصبة نحاسية ، ويكاد يخفى باب الحجرة : ولم يكن يبدو للبصر أثاث ما ، بيد أن ثمة شخصاً كان يجلس فى ركن إلى جوار النافذة ، إذ استطاع (أجوستينو) أن يلمح ساقين استندت إحداهما إلى الأخرى ، وقد اختفت قدماهما فى حذاءين أصفرين ؛ وأدرك الغلام من وضعهما أنهما ساقا رجل استلقى فى مقعد وثير : وساءه أن لا يستطيع أن يرى أكثر من هذا ، فلما هم بأن يغادر مكمنه ، انفرجت الستار .. وبرزت امرأة !

كانت فى ثوب سابغ من الحرير الأزرق الباهت — ذكر (أجوستينو) بقميص نوم أمه ! — وكان شفافاً ، يصل إلى قدميها ؛ ومن مظهر أطرافها خلال القماش السماوى الشفاف ، كان يخيل للرائى أنها تطفو فى ماء صاف نمير ! .. وبهت (أجوستينو) إذ رأى ياقة الثوب ، بحيلة من حيل التصميم ، قد قصت على شكل بيضاوى

امتد حتى خصرها ، ولاح خلاله ثدياها الممتلئان المتماسكان ، يجاهدان كى يفلتا من الضغط الذى أحاطهما به الثوب .. وكان شعرها البنى المتموج يسترسل على كتفيها .. ووجهها الشاحب ، العريض ، يجمع بين الطفولة والإثم فى وقت واحد !.. وعلى عينيها الكليلتين ، وشفتيها المكتنزتين ، المخضبتين ، بدت أسارير تنم عن أن صاحبتها متقلبة الأهواء !

وأقبلت من خلف الستار ويداها خلف ظهرها ، وصدرها بارز إلى الأمام ، فوقفت لحظة جامدة ، دون أن تتكلم ، وكأنما كانت تترقب ما سوف يصدر عن الرجل من تصرف ، إذ بدت شاخصة إلى الركن الذى كان مضجعاً فيه .. ثم تحولت فجأة ، بنفس الهدوء الذى أقبلت به ، واختفت .. تاركة طرفى الستار منفرجين : وللتو ، تحركت ساقا الرجل فغابتا عن بصر (أجوستينو) ، وسمع حركة نهوض :: فابتعد عن النافذة مذعوراً !

وعاد إلى الدرب المؤدى إلى الباب الخارجى ، فدفع هذا الباب ، وانفلت إلى الميدان :: وقد خامره شعور بالاستياء الحاد لفشل محاولته ! كما أحس — فى الوقت ذاته — بجزع مما يترقبه فى الأيام التالية : إن شيئاً ما لم يحدث ، فهو لم يضاجع امرأة ما ، وإنما استولى (نورتيا) على كل نقوده ، ولن تلبث النكات الهازئة المألوفة أن تنبعث من جديد بين صبية العصبة فى الغد ، تصحبها

تلك السخرية الواخزة التى تدور حول علاقته بأمه !.. لقد كانت تفصل بينه وبين ذلك العمل من أعماق التحرر الذى خرج يسعى إليه الليلة ، أعوام وأعوام من الفراغ الخاوى ، والخيبة !.. ولسوف يتحتم عليه — فى الوقت ذاته — أن يظل فيما كان فيه من حياة :: ومن ثم فقد تمردت نفسه على الفكرة المريرة التى راحت توحى إليه بأن ما كان يرجوه قد غدا مستحيلا ، استحالة قاطعة !

* * *

● وإذ بلغ البيت ، دخل دون ما ضجة .. ورأى متاع الزائرة فى الردهة ، وسمع أصواتاً تنبعث من غرفة الجلوس ، فبادر صاعداً إلى الطابق العلوى ، وألقى بنفسه على السرير الصغير فى مخدع أمه .. ثم ما لبث أن راح ينزع ثيابه عنه فى عنف ، فى الظلام ، ويطوح بها على الأرض .. واندس بين أغطية الفراش ، عارياً ..

وبعد برهة ، سرى التخدر إلى جوارحه ، ثم استسلم فى النهاية للنوم : وفجأة ، استيقظ مجفلا ، فإذا مصباح الغرفة مضاءاً ، ينعكس على ظهر أمه .. وكانت فى قميص نومها ، وقد ارتكزت بإحدى ركبتيها على السرير ، تهم بالصعود إليه . فقال على حين غرة ، فى صوت مرتفع إلى درجة تقرب من العنف : « ماما » .

فسارت أمه إليه ، وانحنت قائلة : « ماذا بك ؟ .. ماذا هناك ياحبيبى ؟ » .. وكان قميصها هى الأخرى شفافاً ، كقميص المرأة

التي في (الفيلا) ، تراءت خلاله خطوط جسمها وثناياه ، كما كانت تتراءى خطوط وثنيات جسم المرأة الأخرى .. فقال في صوت عال ، مهتاج ، وهو يحاول أن يقسر بصره على أن يعلق بوجهها . فلا يروغ إلى جسدها : « إنني أريد أن أسافر غداً » .

فجلست أمه على حافة السرير ، وتأملته في دهشة ، ثم تساءلت : « ولماذا ؟ .. ماذا جرى ؟ .. ألست سعيداً هنا ؟ » .. لكنه ردد قوله : « أريد أن أسافر غداً » .. فرت بيدها على جبينه في رفق ، وكأنهـا خشيت أن يكون محموماً ، ثم قالت : « لنر ما هنالك .. ماذا بك ؟ .. ألست كما ينبغي ؟ .. لماذا تريد أن تسافر ؟ » .. وكان قميص نومها يذكره بثوب تلك المرأة التي في (الفيلا) : نفس الشفافية ، واللـون الباهت ، ونفس اللحم المتراخي في إذعان واستسلام .. كل ما كان هنالك من فارق ، هو أن ثوب أمه بدا مجعداً غير متسق ، مما زاد من إضفاء جو من الألفة والتكتم على هذه العورة .. وجال بفكر (أجوستينو) أن طيف تلك المرأة لم يقف حائلا بينه وبين أمه ــ كما كان يرجو ــ وإنما بدا أنه ، على العكس ، زاد من إظهار أنوثة أمه !

وعادت تسأله : « لماذا تريد السفر ؟ .. ألا تحب أن تكون معي ؟ » .. لكنه بدلا من أن يجيبها على سؤالها ، قال فجأة ، دون أن يدري لقوله داعياً : « إنك تعاملينني دائماً كأنني طفل ! » .

فضحكت أمه وربتت على خده قائلة : « جميل جـداً .. من الآن فصاعداً سأعاملك كأنك رجل .. فهل يرضيك ذلك ؟ .. والآن يجب أن تنام ، فنحن في ساعة جد متأخرة » .

وانحنت فقبلته ، ثم أطفأت النور .. وسمعها (أجوستينو) تندس في فراشها ..

ولم يتمالك أن يفكر قبل أن يستغرق في النعاس : « كأنك رجل » ! .. ولكنه لم يكن رجلا .. بل ما أطول وأتعس الوقت الذي يجب أن ينصرم قبل أن يصبح .. رجلا !

« تمت القصـــة »